اليهود انثروبولوجيا

د . جمال حمدان

تقديم د. عبدالوهاب المسيرى

هذا الكتاب من أهم مؤلفات وبحوث الدكتور جمال حمدان رحمه الله وربما كان من أسباب اغتياله حيث فند فيه إدعاءات اليهود بنقاء سلالتهم وأكاذيبهم عن علاقتهم ببني إسرائيل ويهود التوراة وحاول فيه إثبات أن اليهود المعاصرين ليسوا هم أحفاد اليهود الذين خرجوا من فلسطين فترة ما قبل الميلاد وإنما ينتمون إلى امبراطورية الخزر التترية التي قامت بين بحر قزوين والبحر الأسود والتي اعتنقت الديانة اليهودية في القرن الثامن الميلادي . والجدير بالذكر أن ذلك هو ما أكده بعد ذلك الكاتب الإنجليزي آرثر كويستلر مؤلف كتاب القبيلة الثالثة

عادل محمد

مقدمة

بقلم : د. عبد الوهاب المسيرى

اليهود أنثروبولوجيا ، أي «اليهود من الناحية الآنثرويولوجية» هو عنوان الكتيب الذى بين أيدينا، ألفه هذا العبقرى الفلتة، جمال حمدان. ورغم صغر حجم الكتيب فإنه يبلور كثيرا من أفكاره وآرائه ولا يمكن فهمه إلا فى إطار منظومته الفلسفية والسياسية ومنطلقاته الفكرية .
وهذا الكتيب، مثل كل كتابات جمال حمدان، ليس دراسة أكاديمية بالمعنى السلبى للكلمة، أي الدراسة التي يكتبها أحد المتخصصين الأكاديميين دونما سبب واضح ولا تتسم بأى شىء سوى أنها «صالحة للنشر» لأن صاحبها اتبع مجموعة من الأعراف والآليات البحثية (من توثيق ومراجع وعنعات علمية موضوعية تم الاتفاق عليها بين مجموعة من المتخصصين والعلماء.

لتقليل عدد الهوامش سنورد أرقام الصفحات في النص نفسه بعد عنوان الكتاب (إلا كتاب اليهود انلرريولوجيا فسنكتفي بالإشارة إلى رقم الصفحة) .
١) إستراتيجية الاستعمار والتحرير (دار الهلال) ١٩٦٨ .
٢) شخمية مصر (الهيئة العامة للكتاب) ١٩٩٥.
٣) العالم الإسلامي المعاصر (دار الهلال) ١٩٩٢ .
٤) ثلاثية حمدان : د. عمر الفاروق «دار الهلال» ١٩٩٥. اقتبسنا من هذه الكتاب بعض أقوال جمال حمدان التي وردت فى الطبعة الموسعة لكتاب شخصية مصر.

والهدف عادة من مثل هذه الكتابات (التى يقال لها «أبحاث» مع أنها لا تنبع من أية معاناة حقيقية ولا تشكل «بحثا» عن أي شىء) هو زيادة عدد الدراسات التي تضمها السيرة العلمية للأكاديمي صاحب الدراسة، فتتم ترقيته، فالصالح للنشر هو عادة ما يؤهل للترقية. قد تقوم الدنيا ثم تقعد وقد

يقتل الابرياء وينتصر الظل وينتشر الظلام، وصاحب «البحث» لا يزال يكتب ويوثق ويعنعن وينشر، ثم يكتب ويوثق ويعنعن وينشر، وتدور المطابع وتسيل الأحبار ويخرج المزيد من الكتب. ثم يذهب صاحبنا إلى المؤتمرات التي تقرأ فيها أبحاث أكاديمية لا تبحث عن شيء ليزداد لمعانا وتألقا، إلى أن يعين رئيس المجلس الأعلى لشئون اللاشيء الأكاديمي، يتحرك فى عالم خالي من أي هموم انسانية حقيقية - عالم خال من نبض الحياة: رمادية كالحة هى هذه المعرفة الإكاديمية، وذهبية خضراء هى شجرة المعرفة الحية المورقة النموذج المعلوماتي التراكمي كتيب جمال حمدان ليس دراسة أكاديمية بهذا المعنى، وإنما هى دراسة عميقة كتبها مثقف مصرى «صاحب موقف»، لا يكتب إلا انطلاقا من لحظة معاناة وكشف. وهو بلا شك يتبع معظم الأعراف الأكاديمية ويستخدم كل الآليات البحثية من توثيق وعنعنة، ولكن الأليات هى مجرد أليات، والوسائل لا تتحولأبداإلى غايات، والمعلومات موجودة وبكثرة (وربما تفوق بمراحل ما تأتى به المراجع المعلوماتية) ولكنها مجرد معلومات . فنقطة البدء هى قلق وجودى عميق أدى إلى ظهور مشروع فكرى متكامل، والهدف يظل دائما هو الوصول إلى الحقيقة وكيف يمكن تحويل الحقيقة إلى عدل . ولذا فكل دراسات جمال حمدان هى دراسات إشكالية، محاولة للاجابة عن سؤال ما، وتصب كل الأسئلة فى مشروع فكرى واحد، محوره مصر. فجمال حمدان صاحب فكر وليس ناقلا للأفكار مثل عدد لا يستهان به ممن يسمون بالمفكرين في بلادنا ممن جعلوا همهم نقل آخر فكرة وأخر صيحة، عادة من الغرب "أولئك الذين يرون أن العالم هو الغرب
.. ولا شيء سواه، وهى النظرة الاستعمارية التي سادت طويلا، والتى تركزعلى أن الدنيا هى أوربا Euro-Centric والآن على أوربا وأمريكا معاً أو الغرب بعامة " ثلاثية حمدان ص ٢٣ "
صاحب الفكر هو إنسان قد طور منظومة فكرية تتسم أجزائها بقدر من الترابط والاتساق الداخلي (فهي تعبر عن قلقه وأماله)، ويكمن وراءها نموذج معرفى واحد - رؤية واحدة للكون. أما ناقل آلأفكار، فهو إنسان ينقل أفكارا متناثرة لا يربطها بالضرورة رابط، وتنتمى كل فكرة إلى منظومة فكرية مستقلة. وما يحدث فى كثير من الدراسات الأكاديمية أن كاتبيها يقومون بنقل آلأفكار المتباينة ويعرضون لها، دون إدراك للنموذج المعرفى الكامن وراءها، أو مع إدراك كامل له دون أن يكترثوا بتضميناته وتطبيقاته، فمهمتهم هى النقل (حتى نلحق بركب الحضارة الغربية) - نقل كل شيء بأمانة شديدة وحياد أشد، وموضوعية متلقية هى فى واقع الأمر تعبير عن موت القلب

والعقل والضمير والهوية، والقدرة على الاجتهاد. فى هذا الإطار يحل السرد المباشر للأفكار محل عمليات التفسير بما تتضمنه من تفكيك وإعادة تركيب، ويختفى المنظور النقدى، فتتعايش آلأفكار المتناقضة جنبأ إلى جنب ولا يمكن التمييز بين الجوهرى منها والهامشى. ونقل آلأفكار ورصها دون إدراك لتضميناتها الفلسفية لا يختلف كثيرأ عن نقل المعلومات ومراكمتها دون إدراك للمعنى الكامن وراءها والتحيزات القابعة داخلها والسياق الذى نبعت منه. ولذا فمثل هذه الدراسات قد تنقل عمدا أو عن غير عمد وجهات نظر محدودة ومحسوبة سيآسيا (كما يقول جمال حمدان صن٧) وهكذا يتحول المثقفون إلى أعضاء فى شركات نقل آلأفكار التي لا تختلف كثيرا عن شركات نقل المعلومات أو حتى البضائع.

جمال حمدان لا ينتمى إلى هذه المدرسة المعلوماتية التراكمية التي استشرت تماما فى صفوف الباحثين بسبب سهولة الآنتاج العلمي من خلالها (استبيانات - جداول - تحليل سطحى للمضمون - استطلاع رأى - أرقام) ولاشك أن غياب المشروع الحضارى المستقل يزيد من انتشار هذا النموذج، إذ يحل التفكير السهل المباشر من خلال الكم المصمت محل التفكير المركب من خلال الرؤية والهوية والحلم والأمل، ويصبح التلقى المهزوم والإذعان (الموضوعى) للأمر الواقع بديلا لمحاولة رصدالواقع بأمل تغييره وإعادة صياغته. وقد زحف هذا النموذج على المقررات المدرسية وفلسفة التعليم فى مدارسنا، ومن هنا التلقين، والدروس الخصوصية التي لا تعلم الطالب شيئأ، إذ أن المهارة الأساسية التى يكتسبها هى مهارة اجتياز الامتحانات.

إن المدرسة المعلوماتية التراكمية معادية للفكر والأبداع، تدور فى إطار الموضوعية المتلقية، السلبية، العقل عندها آلة ترصد وتسجل، وليس طاقة انسانية مبدعة تعيد صياغة العالم، وهى لا تكترث بالحق أو الحقيقة لأنها غرقت تماما فى الحقائق والوقائع وآلأفكار المتناثرة، ترصدها من الخارج دون تعمق ودون اجتهاد وكأنها أشياء مرصوصة، كم لا هوية له، ولذا تفقد الظواهر شخصيتها ومنحناها الخاص. وكما يقول جمال حمدان، "نحن نلاحظ أن أغلب كتاباتنا فى العربية عن العدو الإسرائيلى تأخذ فى جملتها الصيغة السياسية المباشرة أو غير المباشرة التي تعامل العدو كمعطيات مفروغ مئها أو ككم معلوم بدرجة أو بأخرى دون أن تحاول أن تنفذ إلى حقيقة كيانه وتركيبه: فالكل يهود أو صهيونيون، والكل يعيش فى كنف الاستعمار وحمايته، والكل أتى بصورة غامضة من نسل يهود الشتات الذين أتوا بدورهم بطريقة ما من سلالة يهود فلسطين

التوراة... إلخ . وفى هذا الإطار التجريدى الضيق أي الاختزالى أو المتعجل غير المتأنى... تبدو صورة العدو فى أذهاننا باهتة عائمة تالفة السطحية، وتبدو أحيانا - أكاد أقول - كما لوكنا نطارد شبحا" (س ٦).

ثنائية تكاملية

وبدلا من هذه المطاردة العبثية للأشباح غير الحقيقية، يقترح جمال حمدان "دراسة علمية محققة تقتنص هذا الشبح، تجسده، ثم تشرحه أصلا وتاريخا، جنسا وتركيبا، تطورا وتوزيعا (صن ٦)، بدلا من الاختزال التركيب؛ وبدلا من التلقى الأبداع؛ وبدلا من التفأصيل الفكرية أو المعلوماتية الميتة رؤية متكاملة وحية. تبدأ هذه الرؤية بتعريف (أو إعادة
تعريف) علم الجغرافيا ذاته (وهذا أمر يغيب عن الكثيرين، أن البحث المبدع الأصيل فى مجال العلوم الإنسانية يعيد صياغة حدود العلم ذاتها). فالجفرافيا هى علم تباين الأرض (أى التعرف على الاختلافات الرئيسية بين أجزاء الأرض المختلفة)"، هى ولا شك «علم» ولذا فهى تتعامل مع الكم والعام. يقف معظم باحثينا عند هذه التضاريس أو الحدود المادية الصارمة، ولكن جمال حمدان المبدع الجسور يتقدم ويغامر ليتعامل مع الكيف والخاص فيؤكد أن قمة علم الجغرافيا هو التعرف على «شخصية الأقاليم. يقول ذلك وهو يعرف تماما أنه قد ولج عالما جديدا مختلفا، « فالشخصية الإقليمية» شىء أكبر من مجرد المحصلة الرياضية لخصائص وتوزيعات الإقليم، إنها تتساءل أساسا عما يعطى منطقة تفردها وتميزها بين سائر المناطق، وتريد أن تنفذ إلى «روح المكان» لتستشف عبقريته الذاتية التي تحدد شخصيته الكامنة".
عالم الكم هو عالم الأشباح التي لا بدن لها ولا قوام ولا روح. ولإنها لا بدن لها نجدها تهوم فى الأماكن ولا يمكن الإمساك بها. وهى أيضاً لا روح لها، فالروح هى مصدر فردية المرء وتميزه عن غيره من بنى الإنسان . هذا لا يعنى أن الجسد ليس له تميزه، فشكل الجسد وبنيته يختلفان من فرد إلى فرد ومن مجموعة بشرية إلى أخرى. ولكن تميز الجسد ليس بنفس درجة تميز الروح، فالجسد فى نهاية الأمر والتحليل والمطاف كم مادى ينتمى لعالم المادة، وقوانين الحركة. بل إن تميزه الحقيقى يأتى من وجود الروح ليه، التي تصوغ الجسد داخل خطاب حضارى متميز (من ملبس

ومأكل وزينة) تختلف من زمان لأخر ومن مكان لأخر، فهى تخرج بالجسد من عالم الطبيعة وقوانينها العامة وتدخل به عالم الحضارة الإنسانية بثرائها وخصوصيتها.

ولأن الجغرافيا كعلم تتجاوز عالم المادة والحواس المباشرة وليست سجينة الكم، فهى لا تقبع قط فى الآن وهنا وحسب، وإنما تتجاوزهما، فهى تترامى بعيدأ عبر الماضى وخلال التاريخ لأنه بالدور التاريخى وحده يمكن أن نتعرف على الفاعلية الإيجابية للاقليم وعلى التعبير الحر للشخصية الإقليمية (شخصية مصر ، ص ٢) ولنلاحظ ما يفعله جمال حمدان فهو يرفض أحادية البعد ويتبنى ثنائية أساسية تشكل جوهر رؤيته وكما يقول: "حق لنا أن نبقى تفأصيل التفأصيل... ولكن أحق علينا كذلك ألا نغرق فيها أو نتوه، وإنما

علينا أن نتجاوزها، نقفز منها وفوقها إلى أعلى الكليات وأعم العموميات... وإلى جانب النظرة التحليلية الميكروسكوبية والجغرافية المجهرية، لاغنى عن النظرة التركيبية التليسكوبية والجغرافية والماكروسكوبية الواسعة آلافق" (ثلاثية حمدان، ص ٢٩). ولكن الثنائية التي يدعو لها ليست ازدواجية وإنما ثنائية تكاملية: كم يتكامل مع كيف - جغرافيا تتكامل مع تاريخ - مكان يتكامل مع زمان - جسد يتكامل مع روح - جزء يتكامل مع كل - خاص يتكامل مع عام.

والتكامل هنا لا يعنى ذوبان واندماج الواحد بالأخر (فهذا يؤدى إلى الواحدية) وإنما يعنى تقاطع وتفاعل يؤدى إلى تفرد وتجاوز لعالم الكم المادى. وإذا أخذنا العنصر الثانى فى الثنائيات فسنكتشف أنه لا ينتمى لعالم المادة المصمتة وإنما ينتمى إلى عالم الإنسان (كيف - تاريخ زمان - روح). وكما يقول جمال حمدان: "البيئة قد تكون فى بعض الأحيان خرساء، ولكنها تنطق من خلال الإنسان، وربما تكون الجغرافيا صماء ولكن ما أكثر ما كان التاريخ لسانها ، ولقد قيل بحق أن التاريخ ظل الآن على الأرض، بمثل ما أن الجغرافيا ظل الأرض على الزمان (شخصية مصر ، ص ٤) بيئة خرساء وجغرافيا صماء. هذا هو عالم الواحدية المادية والدراسات المرضوعية المعلوماتية التراكمية المتلقية) فى مقابل إنسان يذطق وتاريخ يتحدث بلسان فصيح (مثل كتابات جمال حمدان)، والتاريخ هو محاولة الإنسان تجاوز عالم المادة ولذا فهو يلقى بظله عليها - على الأرض، ولكن مادية العالم وموضوعيته لا يمكن للإنسان أن يبتلعهما ، ولذا فالأرض تلقى هى الأخرى بظلالها على الزمان الإنسانى .

المحصلات الرياضية

هذه الثنائية الأساسية هى التي جعلت جمال حمدان يرفض هذا المفهووم المعرفى الذى يشكل الأساس الفلسفى للنموذج المعلوماتى التراكمى والذى قوض دعائم الأبداع الإنسانى وإمكانية الاجتهاد وأحل محله فكر مادى حتمى ممل يقضى على الإنسان - يلقى بظلاله الكثيفة الكئيبة عليه حتى يخفيه تماما، أعنى فكرة وحدة العلوم التي أصبحت من المنطلقات المعرفية الأساسية للبحث العلمى فى مصر والعالم. وجوهر هذه الفكرة هو أنه يجب عدم التمييز بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية ، فالاختلاف بين الإنسان والأشياء ليس اختلافا فى الجوهر والنوع والكيف، وإنما هو اختلاف فى التفأصيل والدرجة والكم، ولذا فإن ما يسرى على الأشياء (والظواهر الطبيعية) يسرى فى أساسياته على الإنسان، ولذا فلابد أن يكون هناك منهج واحد لدراسة الإنسان والأشياء ولسلوك الإنسان والنمل. قد لا يقول دعاة هذا المنهج ذلك صراحة (فمن منا يمكن أن ينكر إنسانيته ببساطة وبشكل صريح وواضح؟) ولكن مثل هذا الموقف متضمن فى منطلقاتهم المعرفية. يرفض جمال حمدان هذا المنطق المادى المصمت المعادى للإنسان : "فالجغرافيا الكاملة الكامئة لا تتحقق فى شىء كما تتحقق فى دراسة الشخصية الاقليمية.. والشخصية الإقليمية ليست تقرير حقيقة علمية مطلقةة يمكن أن تخضع تماما للقياس الرياضى والإحصاء، وذلك على الرغم من أنها تعتمد أساسا ... على مادة علمية موضوعية بحتة إنها عمل فنى بقدر ما هى عمل علمى . وهو لا يجد فى هذه الثنائية أي تعأرض، الجغرافيا "فلسفة المكان... فلسفة عملية واقعية... ترتفع برأسها فوق التاريخ.. وتظل أقدامها راسخة فى الأرض. وفى عبارة رائعة تعكس هذه الثنائية وتفرض عليها قدرا من التكاملية - وهو سيد مثل هذه العبارات - يقول حمدان : "فلسفة تحلق بقدر ما تحدق". الجغرافيا فى نهاية الأمر "علم وفن وفلسفة فى ذات الوقت: علم بمادتها، فن بمعالجتها، فلسفة بنظراتها . كل هذا يعنى رفض النموذج المعلوماتى التراكمى (الواحدى المادى)، "فهذا المنهج المثلث يعنى ببساطة أنه ينقلنا بالجغرافيا من مرحلة المعرفة إلى مرحلة التفكير، من جغرافيا الحقائق المرصوصة إلى جغرافيا آلأفكار الرصينة" (شخصية مصر، ص ٦) وما بين الرص التراكمى والرصانة الإنسانية ثمة فرق شاسع .

ولعل هذا هو السبب الحقيقى لتركه الجامعة، فالنزوع نحو الرص كان قد بدأ فى التصاعد (حتى وصل مؤخرا إلى أبعاد لا يمكن تخيلها). لعله أحس بالكارثة المحدقة وبالتشيئ المطبق، وبأن عالم

الكم والاشباح يزداد اقترابا واتساعا فقرر أن يحمى علمه وأبداعه، لانه عالم لا فلسفة فيه ولا فن ولا أبداع - وإنما محصلات رياضية صماء خرساء لا تقول شيئا ولا حول ولا قوة إلا بالله .
ثمة نقطة أساسية هنا تحتاج لمزيد من التأكيد وهى أن فكرة وحدة العلوم بنزعتها المادية المتطرفة (كل الأمور مادية طبيعية خاضعة للقانون الطبيعى الحتمى الصارم) لا تقوم بالمساواة بين كل الظواهر وحسب وإنما تقوم فى نهاية الأمر وفى التحليل الاخير بتسويتها وردها إلى عنصر مادى واحد. فتختفى الثنائيات والخصوصيات ويختفى عدم التجانس وتظهر المحصلات الرياضية التي تشبه الهامبورجر أو النظام العالمى الجديد بنزوعه نحو العولمة والكوكبة والكوكلة «نسبة إلى الكوكا كولا» وتحويل العالم إلى سوبر ماركت ضخم، كل الناس فيه سواسية كاسنان المشط البلاستيك المستورد أو المصنوع محليا. جمال حمدان لا يطيق هذا، فعالمه عالم إنسانى ثرى جميل مورق ينبض بالحياة ويتسم بعدم التجانس والخصوصية والتفرد .
وينعكس كل هذا فى مفهومه للوحدة، فهو يرفض الوحدة العضوى المصمتة التي تدور فى إطار الرؤى المادية وتشيئ الظواهر، وتجعلها كلا متجانسا أملس. بل إنه يؤكد البعد الإنسانى فى مبدأ الوحدة ذاته . "إن الوحدة السياسية لا تأتى بالضرورة من الوحدة الطبيعية، وإنما من الوحدة البشرية تأتى، فالعبرة فى قيام دولة موحدة دستوريا هى وحدة
الناس، أي وحدة القومية بمعنى تجانسهم فى المقومات الأساسية من لغة مشتركة وتاريخ ملتحم ومصلحة مترابطة وعقيدة سائدة... ثم إن الوحدة السياسية وحدة وظيفية، والوحدة الوظيفية في أي مجال لا تأتى من الوحدة التركيبية بل من التنوع التركيبى، فأى جدوى من أن تتحد أقطار متشابهة منمطة فى إنتاجها ومواردها وإمكانياتها إلا أن يكون مجرد تمدد أميبى عقيم؟ وهذا بالدقة ما يعرف بمبدأ «التنوع فى الوحدة» أو «الوحدة فى التنوع» (شخصية مصر، ص١٣) .

سيدة الحلول الوسطي

مذا المنهج يتبدى تماما فى رؤيته لمصر، فهى نتيجة تفاعل بين بعدين أساسيين (ائتلافا واختلافا): الموضع والموقع، وبين هذا الشد والجذب تخرج شخصية مصر الكامنة كفلتة جفرافية، هى فلتة ولكنها ليست وثنا، ولم يكن هو عاشق وثنى لمصر (كما يحلو للبعض تصويره) يتعبد فى محراب مصر، ولذا فهو يرفض السقوط فى ميتافيزيقا المكان المصرى (أو أي مكان أخر) فيقول: "كثير

من هذه السمات تشترك فيها مصر مع هذه البلاد أو تلك، ولكن مجموعة الملامح ككل تجعل منها مخلوقا فريدا فذا حقيقة: (شخصية مصر ، ص ٨) .

جمال حمدان كان محبا لمصر، والحب أسرار، كما يعرف كل من عرف الحب الحق، وأن تبوح به هو فى حكم المحال، وإن اتسعت الرؤية ضاقت العبارة! ولذا أن تحاول أن تفهم السر وأن تفصح عنه فى ذات الوقت هو شكل من أشكال الثنائية. ولكن العالم - الفنان - الفيلسوف - الذى يستند عالمه إلى ثنائية تكاملية يعرف ذلك تماما، ولذا فهو يحاول أن يفهم السر وهو يعلم مسبقا أنه لن يكشفه، ولن يسويه، وهو يحاول أن يبوح ولكنه يعلم أن البوح وآلافصاح لن يجففا بحر الحب وعيون المحبة ولذا فالعلم الذى سيؤسسه ليس علما رصديا ترشيحيا برائيا - نقتل الفراشة ثم ندرسها ونفسرها. أو كما يقول: إن الدراسة الإقليمية التحليلية.

تثرى معرفتنا بالمعلومات، غير أنها قل أن تنقبض على روح المكان أو تجسد العبقرية بإحكام، إنها تشرح الإقليم .. إلا أنها في غمار ذلك تضحى بروح الإقليم" (ثلاثية حمدان ،

ص ٢٩) تزهقه تماما. وما يريد أن يؤسسه جمال حمدان هو علم مبنى على الحب، علم يحلق ويحدق، "يتحرك من التخصيص إلى التعميم.. من الجزء إلى الكل" (ثلاثية حمدان، ص ٢٩)؛ يدرك السطح البرانى بتفأصيله والعمق الجوانى بأبعاده! يعرف الوحدة ولا ينكر عدم التجانس. ولذا لا ينبغى لنا أن نبالغ فندعى تجانسا مطلقا، يكفى أن نقول تجانسا نسبيأ. وهذا التجانس ليس النقاوة الجنسية" (التى يدعيها العنصريون البيولوجيون الماديون لأنفسهم)، فمن الواضح "أن دماء كثيرة دخيلة وغريبة قد أضيفت إلى عروق مصر وصبت فى شرايينها... وليس من الدقة العلمية فى شىء أن نصور مصر بوعاء، جامد يتشكل كلى من دخله بشكله، فليس هناك أطر ثابتة إلى هذا الحد كانها أقفاص حديدية (شخصية مصر، ص٣٢)

كاتبنا ينفر بشكل واضح من النماذج الاختزالية المغلقة والتجانس الواحدى المطلق، عالم الأشباح إياه. ومصر التي يحبها ليست شيئا ماديا، جغرافيا محضا، وإنما هى رقعة يلتقى فيها الزمان بالمكان .

هى مجموعة من الثنائيات التي لا تذوب ولا تختزل فى كل واحدى مصمت - هى بطريقة ما تكاد تنتمى إلى كل مكان دون أن تكون هناك تماما، فهى بالجغرافيا تقع فى أفريقيا، ولكنها تمت أيضا إلى آسيا بالتاريخ وهى بجسمها النحيل تبدو مخلوقا أقل من قوى، ولكنها برسالتها التاريخية

الطموح تحمل رأسأ أكثر من ضخم... وإذا كان لهذا كله مغزى، فهو ليس أنها تجمع بين الأضداد والمتناقضات، وإنما أنها تجمع بين أطراف متعددة غنية وجوانب كثيرة خصبة وثرية، بين أبعاد وآفاق واسعة، بصورة تؤكد فيها «ملكة الحد الأوسط» وتجعلها «سيدة الحلول الوسطى»، تجعلها أمة وسطا بكل معنى الكلمة، بكل معنى الوسط الذهبى، ولكن ليس أمة نصفا !(شخصية مصر ، ص ٨- ٩) .

الدائرة العربية والدائرة الإسلامية

وسيدة الحلول الوسطى هذه "فرعونية بالجد.. عربية با لأب" (شخصية مصرص ٨). ولكنها ثنائية تكاملية، وليست ازدواجية "فالاب والجد من أصل وجد أعلى واحد مشترك. غير أن العرب هنا وقد غيروا ثقافة مصر، هم الأب الاجتماعي فى الدرجة الأولى، وليسوا «الأب البيولوجى» إلا فى الدرجة الثانية" (شخصية مصر ، ص ٢١٣).
فالتعريب والإسلام... "هما أعظم حقيقة فى تاريخ مصر الثقافى والروحى ويمثلان انقطاعا حضاريا، ونقطة تحول حاسمة وخط تقسيم فى وجودنا اللامادى (شخصية مصر ص٢٠٨).
ويالنسبة لجمال حمدان يعد هذا الوجود اللامادى هو العنصر الأهم فى ثنائيته التكاملية فبعد التعريب... أصبحت مصر جزءا لا يتجزأ من العالم العربى وعاشت غالبا إقليما أو رأسا فى رؤيته السياسية وفى ظل وحدته القومية" (شخصية مصر، ص ٢٠٨) والاستعارات أو الصور المجازية التي يستخدمها جمال حمدان تشى بولائه العربى على حساب جذوره «المصرية». فنحن نحب الجد ونتذكره، أما الأب فنحن ننتمى إليه، ونسير معه خاصة وإذا كان الاب العربى هو آخر انقطاع فى الاستمرارية المصرية"، خاصة أن الجد قد ابتعد كثيرا، فمصر الفرعونية (كما يبين جمال حمدان) لم تعد إلا مكدسة فى المتحف أو معلقة كالحفريات على سفوح الهضبتين، أما فى الوادى فقد انقرضت كما انقرضت من قبل تماسيح النيل من النهر ، ولهذا فنحن ننتهى إلى أن الحضارة الفرعونية قد ماتت فى مجموعها، دون أن ينفى ذلك الاستمرارية المحورية فى حضارتنا المادية (شخصية مصر، ص ٢٠٧) . ولذا يحذر جمال حمدان دعاة "الفرعونية (وغيرها من دعاوى الرجعية التاريخية والوطنيات الضيقة كالفينيقية والأشورية) فالمقهود من هذه الدعوات نفى القومية العربية ونسخ العروبة ومضاربة القومية الشاملة بالوطنية المغلقة" (شخصية مصرص

٢١٤). كما يحذر من دعاة الاستمرارية فى الكيان المصرى "لا ليبرز أصالة ما، ولكن ليقلل من جانب الآنقطاع، ويالتالى ليضخم فى البعد الفرعونى فى تاريخنا فيبعدنا عن عروبتنا ويطمس معالمها (شخصية مصر ص ٢٠٨ـ ٢٠٩) .

ومصر التي فى خاطره وفى فمه، وسيدة الحلول الوسطى، تقع فى وسط ثلاث (أو أربع) دوائر مختلفة بحيث صارت مجمعاً لعوالم شتى، فهى قلب العالم العربى وواسطة العالم الإسلامى وحجر الزاوية فى العالم الأفريقي" (شخصية مصر ، ص ٩). وهو فى كتابات أخرى يشير إلى أفريقيا وآسيا باعتبارهما الدائرة الثالثة. هناك الدائرة الرابعة الأعظم والمحيط الأكبر: بقية العالم.

ولنبدأ بالدائرة الأولى أي الدائرة العربية. "الإطار العربى حسب تصور حمدان ليس مجرد بعد توجيهى أو إشعاعى ولكنه خامة الجسم وكيان جوهر فى ذاته" (شخصية مصرص١٧٨) ومع هذا لا يرى حمدان أن الوحدة العربية وحدة عضوية مصمتة: "فليس مما يضير قضية الوحدة العربية أو يخرب حركة القومية العربية أن يكون لكل

قطر من أقطارها شخصيته الطبيعية المتبلورة بدرجة أو بأخرى داخل الإطار العام المشترك. وهذا التنوع والتباين فى البيئات إنما يثرى الشخصية العربية العامة ويجعلها متعددة الجوانب والأبعاد، وهو لا يعنى التمزيق السياسى أو تأكيد الأنفصالية الراهنة بحال ولا يشجع الولاءات الوطنية فى وجه الولاء القومى العربى الكبير أو على حسابه (شخصية مصر ، ص ١٣ ١٤) .

ولنتوقف هنا قليلا لأشير إلى حقيقة غائبة عن الكثيرين ؛ جمال حمدان بلا منازع هو واحد من أهم فلاسفة ثورة ٢٣ يوليه فقد بلور رؤيتها للذات وللكون وللآخر، ووضح الأسس الفلسفية

لمشروعها الحضارى الثورى، ونظّر للصراع العربى الإسرائيلى باعتباره صراعا سيآسيا مصيريا حضاريا له أبعاد دينية، فابتعد به عن العنصرية. ولكن يبدو أن بيروقراطية ثورة ٢٣ يوليه لم تكن مدركة لأهمية اللحظة التاريخية ولا لمدى ثراء الإمكانات لأنها كائت ثورة برجماتية عملية تؤمن بالحقائق والمعلومات والحلول الجاهزة، فضاع ما ضاع، وجلس فيلسوفنا الحزين ينظّر لها. بيذما كانت أمانة الدعوة والفكر الاشتراكى، تمتلئ بموظفين قادرين على إصدار أي بيان يطلب منهم لخدمة مصلحة الدولة والنظام (أى نظام كما بينت الايام) وبذلك وضع الفكر فى خدمة اللحظة ولم توضع اللحظة فى إطار الفكر .

توضع ولا تختلف الوحدة الإسلامية من منظور حمدان كثيراً عن الوحدة العربية، فهو يرفض المفهوم العضوى الكاسح للوحدة الإسلامية التي يجعلها تدخل فى صراع مع الوحدة العربية "بهدف المضاربة بينهما من جهة وتذويب القومية العربية وتمييعها من جهة ثانية" . بدلا من هذا يطرح مفهوما «صحيا وصحيحا» للوحدة الإسلامية. توحيد الدين، بمعنى توحيد عقيدة الإسلام لا المسلمين، لتذويب الفروق والفرق الحفرية التي ورثها عن ماض فقد الآن سياقه الزمنى ؛ وتعميق روح الإسلام وتقويمها حيث سطحية أو ابتعادات أو تحريفات؛ التبادل الثقافى والفكرى العام والمزيد من التنسيق الاقتصادى والترابط والتبادل التجارى؛ التضامن السياسى الوثيق فى المجتمع الدولى لمجابهة الأخطار الخارجية والتعاون لتحرير الدول الإسلامية المستعمرة.. تلك جميعا هي المجالات الخصبة والفعالة والواجبة لتفاعل العالم الإسلامى سيآسيا... إنها فى كلمة «وحدة عمل» لا «وحدة كيان». بل يمكن أن نضيف: وحدة مصير، إلا أنها ليست دستورية، فى كلمة أخرى: وحدة فكرية لا دستورية. أو هى كما قال عبد الناصر فى دوائره الثلاث دائرة إخوان العقيدة الذين يتجهون أينما كان مكانهم تحت الشمس إلى قبلة واحدة . فإذا كانت الدائرة العربية وحدة مصير، والأفريقية وحدة جوار، فالإسلامية وحدة عقيدة (المالم الإسلاسى المعاصر ، ص ٢٠٦)

فلسطين : عين القلب وقدس الأقداس

بعد هذه المقدمات التاريخية الجغرافية، الزمانية المكانية، هذه البانوراما العريضة حان الوقت أن نقترب من موضوعنا وأن نسأل : أين تقع إسرائيل من كل هذا؟ وأين يقع اليهود؟ . يعير جمال حمدان عن الموقف الجيوستراتيجى المصرى كله فى إيجاز من خلال سلسلة من المعادلات الإستراتيجية على النحو التالى .

- من يسيطر على فلسطين.. يهدد خط دفاع سيناء الأول .
- من يسيطر على خط دفاع سيناء الأوسط.. يتحكم فى سيناء
- من يسيطر على سيناء.. يتحكم فى خط دفاع مصر الأخير
- من يسيطر على خط دفاع مصر الأخير.. يهدد الوادى .

وهذه بالضبط «نواة نظرية الأمن المصرى» (ثلاثية حمدان ، من ٢٢٨). إن موقع مصر مهدد أبدا وبانتظام بالإجهاض والشلل الجزئى ما بقيت إسرائيل"، خاصة وأنها تريد أن ترث دور القناة

نهائيا، بل وتهدف إلى سرقة موقع مصر الجغرافى"، ومن ثم يصبح المبدأ الإستراتيجى الأول فى نظرية الأمن المصرى هو مرة أخرى : دافع عن سيناء - تدافع عن القناة.. تدافع عن مصر . جميعا، ولا ضمان بالتالى إلا بذهاب العدو" (ثلاثية حمدان ٢٢٨) .

ثم ننتقل إلى الدائرة الأولى حيث نجد مصر "محكوما عليها بالعروبة" (بعد أن دخل الجد الفرعونى المتحف)، فهى «لا تستطيع أن تنسحب من عروبتها، أن تنضوها عن نفسها حتى لو أرادت" (ثلاثية حمدان ، ص ٢٤). بل إنها محكوم عليها بزعامة العالم العربى الذى تقع فلسطين هى منتصفه، ولكن بدلا من فلسطين التي توحد شطريه والتى تمثل نقطة عبور بينهما، تظهر إسرائيل التي تمثل فاصلا أرضيا يمزق اتصال المنطقة المربية ويخرب تجانسها ويمنع وحدتها فهى إسفنجة غير قابلة للتشبع تمتص كل طاقاتها ونزيفا مزمنا فى مواردها وأداة جاهزة لضرب حركة التحرير (إستراتيجيا الاستعمار والتحرير، ١٧٥).

ثم ننتقل إلى الدائرة الثانية، أي الدائرة الإسلامية. سنكتشف إن فلسطين عين القلب من العالم الإسلامى، لا جفرافيا فحسب، بل ودينيا أولا وقبل كل شيء. إن يكن العالم العربى هو قلب العالم الإسلامى روحيا وموقعا، فإن فلسطين - كمصر فى هذا الصدد - هى أرض الزاوية من العالم الإسلامى طبيعيا. ويالفعل فإنها تقع فى صرة العالم الإسلامى تتوسطه - ما بين الصين شرقا والأطلسى غربا وما بين وسط آسيا شمالا وجنوب أفريقيا جنويا. إن مكانة فلسطين فى العالم الإسلامى تتلخص ببساطة وبما فيه الكفاية فى أنها من منطقة النواة وقدس الأقداس فيه أرضا ودينا: (العالم الإسلامى المعاصر ص ٢٠٨) . ثم تلتحم الدائرتان العربية والإسلامية "فالخطر الصهيونى لا يستهدف الأرض المقدسة فى فلسطين فحسب"، وإنما يمتد من النيل إلى الفرات شرقاً بغرب، ومن الاسكندرونة حتى المدينة شمالا بجنوب وهذا وذاك يعنى نصف المشرق العربى بالتقريب، ويضم كل أرض

الإسلام المقدسة بل وكل دائرة الرسالات، ويرادف قلب العالم العربى، وفى الوقت نفسه صرة العالم الإسلامى" (العالم الإسلامى المماصرص ٢١٥) . ولذا إن كان ثمة للعالم الإسلامى من وحدة سياسية، فهى وحدة الععل السياسى، وهو العمل من أجل إنقاذ واستنقاذ فلسطين للعروبة والإسلام. وإذا كان من واجب العالم العربى أن يدعو إلى «قومية المعركة»، فإن من واجب العالم الإسلامى كما يرى كثيرون أن بتنادى إلى «إسلامية المعركة» (العالم الإسلامى المعاصر ، ص ٢١٦ -

٢١٧) وتتسع الدوائر لتصل إلى الدائرة الأفريقية الأسيوية وهناك أيضأ سنجد إسرائيل أخطر مناطق العدوانية الإمبريالية فى العالم الثالث... أخطر مناطق التسليح الغربى... ترسانة أمريكية مسلحة حتى الأسنان. ويضع جمال حمدان ما يسميه "معادلة عالمية تتألف من عدة متتاليات اقليمية تختزل أساسيات الصراع المستقبل:

- مصير الإمبريالية العالمية يتوقف على مصير العالم الثالث .

مصير العالم الثالث يتوقف على مصير العالم العربى

مصير العالم العربى يتوقف على مصير فلسطين% إسرائيل.

رأس جسر ثابت

إسرائيل إذن ذات أهمية خاصة بالنسبة لجمال حمدان وهى ليست مهمة فى ذاتها، إذ تنبع أهميتها من أهمية فلسطين بالنسبة لمصر والعالم العربى والعالم الإسلامى والعالم الأسيوى% الأفريقي والتشكيل الاستعمارى الغربى. وحينما يتناول جمال حمدان ظاهرة إسرائيل فإنه يراها باعتبارها ظاهرة غربية بالدرجة الأولى، ثم ظاهرة يهودية بالدرجة
الثانية. يصف جمال حمدان إسرائيل بأنها ظاهرة استعمارية صرفة (إستراتيجية الاستعمار والتحرير، ص ١١٩). أما الصهيونية فهى بكل بساطة السرقة (إستراتيجية الاستعمار والتحرير ص ٢٠٩) هى قطعة من الاستعمار الغربى (إستراتيجية الاستعمار والتحرير، ص ١٩١) ولكنها قطعة تتمتع بأهمية خاصة "فهى بالنسبة إليه قاعدة متكاملة آمنة عسكريا، ورأس جسر ثابت إستراتيجيا، ووكيل عام اقتصاديا وعميل خاص احتكاريا (إستراتيجية الاستعمار والتحرير ص ١٧٥) ولذا فإن الصهيوئية "اليوم هى بلا مبالغة أو مزايدة أكبر خطر وتحد يواجهه العالم الإسلامى المعاصر، تماما كما يوا جهه العالم المربى: أكبر من صليبيات العصور الوسطى، وأكبر من كل موجة الاستعمار الأوربى الحديث التي غطته فى القرن التاسع عشر والذى لم يتعد على اتساعه حدود الأغراض السياسية أو الإستراتيجية أو الاستغلالية، إن الاستعمار التوسعى الأخطبوطى الصهيوئى إن يكن سرطان العالم العربى، فهو جذام العالم الإسلامى فى الوقت نفسه (العالم الإسلامى المعاصر ص ٢١٥) .

هذه هى بعض الجوانب العامة لهذه الظاهرة الاستعمارية . ولكن جمال حمدان لا يقنع مطلقا بالعام ولذا فهو يتقدم خطوة للأمام ليدرس خصوصية إسرائيل :

١ - الاستعمار الصهيونى «استعمار عميل»، «فلقد كان من المستحيل أن يتحقق الحلم إلا بالمساعدة الكاملة من قوى السيادة العالمية، فالاستعمار هو الذى خلقها بالسياسة والحرب، وهو الذى يمدها بكل وسائل الحياة من أسلحة وأموال، وهو الذى يضمن بقاءها ويحميها علنا" (إستراتيجية الاستعمار والتحرير ص ١٧٦). «ومن هنا التقت الإمبريالية العالمية مع الصهيونية لقاء تاريخيا على طريق واحد هو طريق المصلحة الاستعمارية المتبادلة فيكون الوطن اليهودى قاعدة تابعة وحليفا مضمونا أبدا يخدم

مصالح الاستعمار، وذلك ثمنا لخلقه اياه وضمانه لبقائه»

إسرائيل استعمار سكنى فى ادرجة الأولى ، فلئن كانت بداياتها قد واكبت موجة الاستعمار المدارى فى القرن التاسع عشر، إلا أنها استهدفت وحققت كل مقومات استعمار المعتدلات الذى ساد فى القرنين السابع عشر والثامن عشر وسعى إلى التوطن الدائم فى بيئات معتدلة شبه أوربية المناخ. ولعل استعمار الجزائر كان أقرب سابقة لها تاريخيا، ولكنها تظل تمثل آخر موجة من الاستعمار السكنى الاستيطانى فى العالم كله (إستراتيجية الاستعمار والتحرير ص ١٧٢) .

هذه هى الصورة العامة ولكن جمال حمدان يرى أي ثمة خصوصية لهذا الاستعمار السكنى أ) إذا صح أن نميز فى الاستعمار السكنى للمعتدلات بين النمط اللاتينى الذى يضيف المستعمرين إلى الأهالى الأصليين بلا إبادة عامة كما فى أمريكا اللاتينية أو الجزائر، وبين النمط السكسونى الذى يقوم على إحلال المستعمرين محل الأهالى الوطنيين بالإبادة أو الطرد كما فى أستراليا وجنوب أفريقيا والولايات المتحدة، فإن إسرائيل تقع بالتأكيد فى النمط السكسونى" (إستراتيجية الاستعمار والتحرير ص ١٧٢)

ب) تتميز إسرائيل بما يجعلها حالة فريدة شاذة لا مثيل لها بين كل نماذج الاستعمار السكنى، فهى تجمع بين أسوا ما فى هذه النماذج، ثم تضيف إليه الأسوأ منه، هى كأستراليا والولايات المتحدة انتظمت قدرا محققا من إبادة الجنس، وهى كجنوب أفريقيا تعرف قدرا محققا من العزل الجنسى. ولكنها تختلف عن الجميع من حيث أنها طردت السكان الأصليين خارجها تماما ليتحولوا إلى لاجئين مقتلعين معلقين على حدودها (إستراتيجية الاستعمار والتحرير ، ص ١٧٢ - ١٧٣) .

ج) كما أن إسرائيل ليست عملية سرقة عادية فقد اغتصبت الأرض وما عليها من ممتلكات، فالاستعمار الاستيطانى الإسرائيلى عملية رهيبة من نزع الملكية على مقياس شعب ووطن بأسره (إستراتيجية الاستعمار والتحرير ، ص ١٧٤). وإسرائيل بهذا كله أعلى - أم نقول أدنى؟
مراحل الاستعمار السكنى، وهى الاستيطان بالاستئصال والإحلال .والإجتثاث والإبادة (إستراتيجية الاستعمار والتحرير ، ص ١٧٣)
إسرائيل استعمار توسعى أساسا، «وأطماعها الإقليمية معلنة بلا مواربة، وخريطة إسرائيل الكبرى محددة من قبل ومتداولة، ومن «النيل إلى الفرات أرضك يا إسرائيل هو شعار الإمبراطورية الصهيونية الموعودة. وهدف إسرائيل الكبرى أن تستوعب كل يهود العالم فى نهاية المطاف، ومثله لا يمكن أن يتم إلا بتفريغ المنطقة من أصحابها إما بالطرد وإما بالإبادة. وبطبيعة الحال، فلا سبيل إلى هذا إلا بالحروب العدوائية الشاملة ونحن بهذا إزاء أخطبوط سرطانى فى آن واحد، إزاء عدوان آنى واقع وعدوان سيقع في أي أن (إستراتيجية الاستعمار والتحريرص ١٧٤) .
أدى كل هذا إلى عسكرة المجتمع الإسرائيلى تماما، فقد تعين فى حالة إسرائيل، أن تصبح حدودها هى جيوشها، وجيوشها هى حدودها (إستراتيجية الاستعمار والتحرير ص١٧٤). كما أن وجودها غير الشرعى رهن من البداية إلى النهاية بالقوة المسكرية وبكونها ترسانة وقاعدة وثكنة مسلحة، فما قامت ولن تبقى - وهذا تدركه جيداً- إلا بالدم
والحديد والنار. ولهذا فهى دولة عسكرية فى صميم تنظيمها وحياتها، وأمن إسرائيل هو مشكلتها المحورية، أما حلها فقد تحدد فى أن أصبح جيشها هو سكانها وسكانها هم جيشها، وهو ما يعبر عنه بـ «عسكرة» إسرائيل وأنها استعمار اقتصادى، فهذا أساسى فى كيانها منذ أن اغتصبت الأرض وما عليها من ممتلكات (إستراتيجية الاستعمار والتحرير ص ١٧٢).

متحف الأجناس

إسرائيل - كما أسلفنا - استعمار سكانى مبنى على نقل السكان (اليهود) من الخارج إلى فلسطين، ولذا يصبح هؤلاء اليهود إشكالية أساسية، ومن هنا اليهود انثرويولوجيا . وجمال حمدان - كما أسلفنا - يرفض وحدة العلوم، لذا فعلوم الإنسان مختلفة عن علوم الحيوان والحشرات والأشياء، لذا فهو لا يشيئ ما هو إنسانى، أي لا يراه باعتباره شيئا، أي لا يخضعه لمنطق الأشياء

وقوانينها. كما انه لم يشيئ مصر أو العالم العربى والإسلامى، ولم يشيئ الجغرافيا فى علم طبيعى، ولم يشيئ: إسرائيل (ليجعلها إما قاعدة عامة للاستعمار الغربى، أو تعبير فريد عن مؤامرة يهودية شيطانية أزلية)، فهو أيضا لا، اليهود لا يدرس جمال حمدان اليهود باعتبارهم رسل الحضارة النورانيين (الشعب المختار فى الرؤية الصهيونية) ولا هم شياطين ملاعين (قوة الشر الأزلية فى الرؤية المعادية لليهود). فكلتا الرؤيتين تشيئان اليهود وتضعهما فى مجال خاص بهم، مقصور عليهم سمى الدراسات اليهودية» وهى تسمية متحيزة لأقصى حد، تنطلق من رؤية اليهود باعتبارهم وحدة (كتلة عضوية من الملائكة أو الشياطين) . يرفض جمال حمدان هذا ويضع اليهود، كما يضع أي ظاهرة أخرى، في النقطة التي يتقاطع فيها الخاص مع العام والكل مع الجزء. فاليهود هم بالدرجة الأولى جزء من الظاهرة الاستعمارية الاستيطانية الإحلالية لعامة، ومع هذا فثمة ملامح خاصة فريدة لهم: العودة اليهودية إلى فلسطين ليست عودة توراتية أو تلمودية أو دينية وإنما هى عودة... إلى فلسطين بالاغتصاب، هو غزو وعدوان غرباء لا عودة أبناء قدامى، أي استعمار لا شبهة فيه بالمعنى العلمى الصارم. تمثل جسما غريبا دخيلا مفروضا على الوجود العربى،أبداغير قابل للامتصاص... فهم ليسوا عنصرا جنسيا في أي معنى بل جماع ومتحف حى لكل أخلاط الأجناس فى العالم كما يدرك أي أنثروبولوجي (ص١٧) إن يهود العالم اليوم مختلطون فى جملتهم اختلاطا بعد بهم عن أي أصول إسرائيلية فلسطيئية قديمة" (ص ١٨١).

هذه هى الصورة العامة، ولكن هناك دائما الخاص، "وإذا كان ثمة تحفظ ما، فهو أن هناك مراحل ودرجات من هذا التخليط" (ص ١٨١). وبعد أن يبين هذه المراحل وتلك الدرجات يخلص إلى "أن اليهود اليوم إنما هم أقارب الأوربيين والأمريكيين، بل هم فى الأعم الأغلب بعض وجزء منهم وشريحة لحما ودما، وإن اختلف الدين. ومن هنا فإن اليهود فى أوربا وأمريكا ليسوا كما يدعون غرباء أو أجانب دخلاء يعيشون فى المنفى وتحت رحمة أصحاب البيت، وإنما هم من صميم أصحاب البيت نسلا وسلالة، لا يفرقهم عنهم سوى الدين (س ١٨٣).

هذه هى النتيجة النهائية، ولكنه لا يصل إليها من خلال المرافعات القانونية والمنطقية الرنانة أو من خلال لى عنق الحقائق، أو من خلال أنصاف الحقائق (التى يسمونها «الأكاذيب الحقيقية»، وإنما من خلال دراسة متعمقة لكل التفأصيل الممكنة، أنظر - على سبيل المثال - دراسته لشكل الرأس باعتباره أهم المؤشرات على النقاء، أو الخلط (ص١٤٢ - ١٤٦). يعرض حمدان للقضية

من خلال بناء مذطقى واضح يختبره دائما من خلال القرائن والشواهد المتعينة المختلفة. وهو فى دراسته لا يكف عن الإشارة للسياقات التاريخية المتعددة وتنوعها. ففى أقل من صفحة واحدة (ص ٦٠) يشير إلى تاريخ الصراع بين الدولتين العبرانيتين (٥٨ - ٦٠) وإلى يهود الجزيرة العربية (الذين يتناولهم فى عدة صفحات أخرى فيدرس تاريخهم ص ٦٣ وتوزيهم ص ١٠٤)وأعدادهم ص ١٠٥ وخروجهم من العالم العربى).

والهدف من هذه السياقات التاريخية والأبعاد المركبة المتنوعة هو الخروج بالظاهرة اليهودية من سجن الدراسات اليهودية ليدخل بها فى سياق العلم العام. فاليهود جزء من تواريخ التشكيلات الحضارية التي يوجدون فيها ولا يوجد أي داع لعزلهم عما حولهم من ظواهر. فكما أن إسرائيل استعمار استيطانى إحلالى شأنه شأن أي استعمار استيطانى إحلالى يمكن دراسته داخل إطار حركيات تاريخ الاستعمار الغربى فاليهود هم أيضأ بشر، يمكن دراستهم داخل إطار حركيات تواريخ المجتمعات المختلفة شأنهم شأن كل البشر. وهو بذلك يسترجع لهم إنسانيتهم التي استبعدها كل من الصهاينة والمعادين لليهود الذين صوروا اليهود، على سبيل المثال، على أنهم فى حالة شتات دائمة، يهيمون على وجههم من بلد لأخر يرفضون الآندماج فى مجتمعاتهم. لا يقبل جمال حمدان مثل هذه الأساطير الشائعة، ويبين أن اليهود لم يقاوموا عمليات صبغهم بالصبفة الهيلينية كما تزعم التواريخ الصهيونية.

لا يمكن إنكار أن بعضهم قد قاوم بالفعل بل ونشأت الدولة المكابية للتصدى للنزعة الهيلينية، إلا أن الأغلبية الساحقة قبلت بهذه الحضارة الهيلينية "وانتشروا انتشارا واسعا بعيد المدى في كل العالم الهيليني البيزنطى ، هذا الإنتشار لم يكن تعبيرا عن شتات أبدى وتجوال لا نهاية له، وإنما هو استجابة إنسانية عادية لأوضاع حضارية اجتماعية. ولذا نجد أن فى مصر قدّر أن ثلث سكان الإسكندرية البطلمية كان من اليهود (ص ٦٦)، هذا قبل سقوط الهيكل، أي أن سقوط الهيكل لم يكن هو سبب تشتت % انتشار اليهود وإنما هو نتيجة اندماج اليهود فى الحضارة الإغريقية، شأنهم شأن الشعوب الأخرى .

من المعلومات المتناثرة إلي الآنماط المتكررة لا يرص جمال حمدان المعلومات والحقائق والوقائع رصا، ولا يراكمها وكأنها قطع من الأحجار الصماء، فهو دائم البحث عن

أنماط، ذات معنى ومغزى، كامنة فى التفأصيل، وهو لا يتناول مادته العلمية الخام بشكل مباشر وكأن عقله صفحة بيضاء ملساء. ٣١ وإنما يواجهها من خلال إشكالية محددة، فبعد أن يأتى بحشد هائل من المعلومات عن أعداد اليهود فى العالم وتوزيعهم، يطرح السؤال التالى: "ماذا تعنى هذه الأرقام وتلك التوزيعات؟، وما هى "ملامح الصورة العامة . الإجابة هى أن "أوربا عمليا هى الوطن المطلق لليهودية العالمية، وما يوجد خارجها ليس بالمقارنة إلا شظايا. وعلى مستوى النظرة الكلية يمكن أن نتصور ثلاث دوائر هى أقطاب التوزيع حتى نهاية القرن الماضى، تقع على عروض متقاربة ولكنها تتضاءل بسرعة وبشدة أقطارا وأحجاما من الشرق إلى الغرب: دائرة شرق أوربا ومركزها بولندا الروسية، ودائرة غرب أوربا ومر كزها الراين وفرانكفورت، وأخيرا دائرة الولايات المتحدة ومركزها نيويورك " (ص ٩٤).

هذا هو الإطار العام، ولكن داخل الإطار العام توجد أنماط أقل عمومية فالصورة بعد الحرب العالمية الثانية غيرها قبلها، واليهود في الإطار الكوكبي هم ظاهرة قزمية" (ص٩٦). وانتشار اليهود في أنحاء العالم ليس انتشارا كميا أو تمددا أفقيا وإنما يتبع هو الآخر نمطا محدداً، فهم ليسوا منتشرين على وجه العموم بل يلاحظ اتجاههم نحو سواحل المحيط الأطلسي شرقية وغربية. فإذا ما أضفنا إلى ذلك نمط التوزيع في أمريكا الجنوبية ثم تركز يهود شمال أفريقيا تقليديا في المغرب، لجاز لنا أن نقرر أن الأغلبية العظمى من يهود العالم تحف بشواطئ ذلك المحيط، بعد أن كانت حتى القرن الماضي تتركز أساسا في القلب القاري للعالم القديم" (ص ١٠٩) وينتقل حمدان من أنماط التوزيع في العالم على وجه العموم إلى أنماط التوزيع داخل كل قطر، فيبين أن "اليهود بالدرجة الأولى سكان مدن، وسكان مدن كبرى بالدقة، ثم هم إلى ذلك سكان عواصم بالتفضيل والامتياز. وأنت حين تتكلم عن يهود دولة ما فأنت تتكلم في الحقيقة عن يهود العاصمة ومدينة أو اثنتين إلى جوارها، وهذه حقيقة طاغية وأبدية طوال تاريخ اليهود قديما كان أو حديثاً ولا تتبلور في وقتنا هذا والأمثلة تغني عن الحصر، ولعل أوضحها في الذهن المثال الأمريكي (ص ١٠٩). وأرجو أن يتأمل القارئ بناء هذه المقطوعة «هم سكان مدن» نعم ولكنها ليست أي مدن وإنما «مدن كبرى»، وهي ليست مدن كبرى وحسب وإنما «عواصم». ثم يضع يدنا على النمط الذي يربط التعميم المجرد بالتفأصيل المتعينة ويهود دولة ما هم عادة «يهود العاصمة ومدينة أو اثنتين إلى جوارها». وهكذا يكتسب النمط ألوانه وتفأصيله، ثم تنتهي المقطوعة بالإشارة إلى

تاريخ اليهود قديما وحديثا، وأخيرا إلى المثال الامريكي المتعين. يبين حمدان أن اليهود يقيمون أساسا في نيويورك وشيكاغو وبضعة مدن أخرى. ويتناول نيويورك ذاتها بالدراسة التي يسميها (بروح الدعابة التي لا تفارقه، رغم نبرته الجادة) "تل أبيب الكبرى، بل إنها إسرائيل الكبرى". ثم يعود إلى النمط مرة أخرى فيقول: إن عدد اليهود في المدن يتناسب تناسبا طرديا مع أحجامها، فهم أقوى ما يكون في نيويورك تليها على الأرجح شيكاغو، بينما لا وزن لهم مثلا في بوسطن (ص ١١٢). ثم يتبنى نبرة القاص ويسأل : "هل تريد مزيدأ من الأمثلة؟" وهو بالطبع لا ينتظر الإجابة فيعطي قارئه عشرات الأمثلة: تورنتو ومونتريال وباريس ولندن وتونس واستنبول وجوهانسبرج وسيدني، أي أنه يختبر بنفسه النمط العام الذي طرحه بالإشارة إلى كثير من القرائن والتفأصيل ليبين مقدرته التفسيرية وليكتسب له الشرعية التي يستحقها ثم يصل حمدان إلى فلسطين، دائما فلسطين، مركز اهتمامه وسرانشغاله باليهود: حتى في فلسطين المحتلة تحول المغتصبون الدخلاء المقتلعون إلى سكان مدن: فمنذ بضع سنين كان ٩. ٧٥% من سكان إسرائيل يتكدسون في المدن والمؤكد أن هذه النسبة قد زادت منذ ذلك الوقت، ومن المؤكد كذلك أن العالم لا يعرف دولة قزمية بهذه الدرجة الصارخة المنحرفة من المدنية **urbanism** . ولكنها ببساطة «حثالة مدن» العالم انصبت واستقطبت في دولة: (ص ١١٣). قد تتفق معه وقد تختلف، وقد تقبل ما يتوصل له من نتائج وقد ترفضه. قد ترى طريقة ربطه بين التفأصيل وتجريده للأنماط متسقة قليلا أو كثيرا، وقد تذهب إلى أن نبرته حادة قليلا أو ربما أكثر من اللازم، قد تقول إن استخدام عبارة «حثالة مدن» انحراف عن المنهج العلمي المحايد أو البارد، قل ما شئت ولكن لا يمكن بعد ذلك أن تقر عيناك بالموضوعية المتلقية وعمليات رص الإحصائيات وتحليل المضمون ولا تملك إلا أن تفكر فيما يقول، فقد شحذ ذهنك وحفز عقلك وعلمك كيف تنفض عن نفسك غبار التلقي، وها أنت ذا تجد نفسك منشغلا مثله بالتفسير والبحث عن أنلماط لها معنى ودلالة داخل التفأصيل التي تبدو وكأن لا معنى لها ولادلالة، أي أنك الآن منشغل بالحقيقة لا بالحقائق والوقائع، وها أنت ذا تدرك أن الحقيقة لا توجد في الحقائق وإنما في الأنماط التي يستخلصها عقل الباحث ، وأن عليه (إن كان حقا محبا للحقيقة وليس عبدا للحقائق) أن يكد ويتعب ليصل إلى من يحب .

اليهودى كتاجر

أشرنا إلى رؤية حمدان لتوزيع اليهود في المكان، ولكن تظل الصورة في حاجة إلى مزيد من الظلال، حتى لا نقع في عالم الأشباح العامة، حني ننتقل من مجرد النيجاتيف أو أشعة إكس التي لا تنطق إلا بالقوانين العامة المادية (الخاضعة للقياس) إلى اللوحة المبدعة التي رسمتها يد إنسان ولذا فهي قادرة أن تنطق بالعام والخاص، وأن تحيط بالكم والكيف والزمان والمكإن، وربما يقاس بدقة وبشكل مباشر وبما لا يمكن الوصول الا من خلال استراتيجيات إدراكية مختلفة بسبب تركيبيته . لإنجاز هذا يشير جمال حمدان إلى توزيع اليهود المهني والوظيفي ويلاحظ ابتعادهم عن الزراعة أولا وعن الصناعة إلى حد بعيد (ص١٠٣). كعا يلاحظ أنهم يتركزون في الأعمال الحرة والمعاملات التجارية والنشاطات المالية والمصرفية. إلخ (من ١٠٤).

ثم بعد أن يحدد الأطروحة بهذا الشكل العام ينطلق في الزمان والمكان ويبين أنه ليس بالعالم كله مجتمع يهودي زراعي واحد يستحق الذكر" وعلى العكس من ذلك كله التجارة والمهن الحرة، فقديما كانت كلمة اليهودي مرادفة لكمة التاجر.. وحديثا يحتشد اليهود في الوظائف الحرة كالطب والمحاماة والتجارة والمال والصحافة حتى لنجد، على سبيل المثال، أن نصف مجموع الأطباء والمحامين في ولاية نيويورك. . من اليهود" (س ١١٥) .

بل إن مستوى التعميم يتجاوز اليهود ليصبح نمطا عالميا، واليهودي بهذا كله قد أصبح مركبا اقتصاديا - اجتماعيا شديد الوضوح حتى ليضرب به المثل وحتى اتخذ علما ونموذجا على حالات مشابهة كذاك مثلا يطلق على الجاليات الصينية التاجرة خارج الصين «يهود جنوب شرق آسيا»، وكذاك يوصف الهنود في مدن ساحل أفريقيا الشرقية «يهود شرق أفريقيا (ص ١١٦) ، اي أنه يخرج بالنمط من عالم اليهود إلى عالم الإنسان ككل، وتصبح الظاهرة اليهودية جزء من العلم العام، علم اجتماع الأقليات التجارية الهامشية .

ولا ينسى جمال حمدان البعد الديني. فرغم تأكيده أن الصراع العربي الإسرائيلي ليس صراعا دينيا (على الأقل من طرفنا) إلا أنه لا يسقط المكون الديني. فكما أن الدائرة إسلامية هي إحدي الدوائر الأساسية التي تقع مصر وفلسطين في وسطها فإن العقيدة اليهودية تشكل إحدي الدوائر الأساسية للصهيونية وإسرائيل. ولذا فهو يتناولها بالدراسة ويصفها "بأنها وحدها من بين الأديان السماوية، هي التي تشترك مع كثير من الديانات غير السماوية في أنها ديانة «مقفلة مغلقة» ي تحجم عن التبشير وتجتر تفسها أبدا). واليهودية "قد تكون عالمية بحكم توزيعها، ولكنها في واقع

الأمر أبعد شيء عن العالمية بحجمها القزمي الضئيل"، وبحكم أن اليهودية ديانة جغرافية (مقصورة على وطن) وعنصرية (مرتبطة بقوم أو عنصر بعينه) (ص ٩٧). وعلى الرغم من أن جمال حمدان لا يشير إلى ماكس فيبر هنا إلا أنه من الواضح أنه قد قرأ بعضا من أعماله (ويشير له بالفعل في بعض دراساته الأخرى) مما يبين مدى اتساع أفقه الثقافي والتفسيري .

ونفس الاهتمام بالدين كمقولة تحليلية يظهر في رؤيته للاندماج ، فعلى عكس ما يقال عن النزعة الجيتوية عند اليهود فإن جمال حمدان يبين أن "اليهود أكثر تعرضاً للعلمانية المطردة إذا قورنوا بغيرهم من الأقليات الأمريكية (م ١٧٠). ومع "تسارع واطراد العلمانية والانصهار لابد وأن يتناقص اليهود إلى أن يختفوا . وعلى عكس ما يتصور البعض هنا في العالم العربي "لا يؤخر هذا الاختفاء إلا ضد السامية أكثر من أي عامل أخر" (ص ١٧١) . ومن هنا الصهيونية ، ومن هنا الدولة الجيتو (س ١٧٢). وهذا التحليل يبين التزام جمال حمدان بالتعددية السببية ورفضه أن يعطي أولوية سببية لعنصر واحد. فظهور الدولة الصهيونية هو ولاشك جزء من الهجمة الاستعمارية ضد المنطقة، ولكن هناك أيضا عناصر خاصة بالجماعات اليهودية مقصورة عليهم ساعدت على تأسيس هذه الدولة. ولذا لابد وأن تُرصد هذه الدولة لا في إطار هذا العنصر أو ذاك وحسب، وإنما من خلال كل العناصر .

حجر أم رشاش متطاير؟

يتحرك جمال حمدان من العام إلى الخاص ومن الخاص إلى العام، ولذأ فهو حريصعلى أن يبتعد أسلوبه عن الصيغ اللغوية الجاهزة ليبحث عن كلمات وعبارات محددة تعبر عن المنحنى الخاص لرؤيته . ولذا نجده يكد ويتعب ليعثر على الكلمات الدقيقة الدالة (جغرافيا صماء) ويتلاعب بها لإبراز المعنى المطلوب (الرص والرصانة) أو الجمل المتناقضة (عدوان آني واقع وعدوان سيقع في أي آن) . وهناك النبرة الخاصة في خطابه، فهو قادرعلى أن يتوقف عن السرد ليتوجه للقارئ مباشرة. ويمكنه أن يتحدث بلهجة العلماء ثم يرصع هذا الكلام بعبارة جميلة في ذاتها، كما أنه مصري صميم في ولائه شبه الكامل للنكتة، ولكنها نكتة توظف دائما في خدمة الرؤية ؛ انظر على سبيل المثال هذه الفقرة من شخصية مصر " أما الأنفتاح الذي يرادف الانتفاخ، فقد خلق طبقة جديدة ثقيلة من الرأسمالية العاتية المستغلة والطفيلية غير المنتجة في أعلى السلم الاجتماعي" (

ثلاثية حمدان ، ص ٢٢) . هذا التلاعب بالألفاظ، الذي هو في جوهره شكل من أشكال الدعابة، يعبر بدقة بالغة عن جانب من الواقع المصري. فالأسلوب الخاص هنا ليس زخرفة وإنما تعبير عن ثنائية حمدان التكاملية الخصبة .

وهناك أخيرا استخدامه للمجاز. واللغة المجازية ليست زخرفة كما يتصور البعض، فالمجاز هو وسيلة إدراكية وطريقة للتعبير عن إدراك مركب تعجز اللغة النثرية عن التعبير عنه. ولأن إدراك جمال حمدان للواقع مركب وفريد إنه كثيراً ما يلجا للمجاز. وهذا في حد ذاته تعبير أيضاً عن رفضه لفكرة وحدة العلوم. فاللغة الرياضية العامة المجردة التي تصلح للتعبير عن الظواهر الطبيعية لا تصلح للتعبير عن كل جوانب الظاهرة الإنسانية. ففي وصفه لتوزع اليهود في العالم يبين أنه "ليس صحيحا أن «تحت كل حجر في العالم يهوديا» ، ويأخذ استعارة الحجر ويقترح استعارة أخرى مشتقة منها ولكنها تقف بالنسبة لها على طرف النقيض : "الأصح أن نقول أن توزيع اليهود العالمي توزيع رشاش متطاير في معظمه يتحول أحيانا إلى تراب رمزي بحت" . وهكذا يتحول الحجر الصلب إلى «رشاش متطاير» ثم إلى «تراب (ص ١٠٥) . وفي مكان أخر يتحدث مرة أخرى عن توزيع اليهود فيقول الصورة المجازية ليست نهر مجره مرصعة عالميا بمستعمرات اليهود، ولكنها يمكن ان تكون منثورا من النوى والنويات السديمية هناك وهناك" لقد استخدم هنا نفس الألية تقريبا، فقد أخذ صورة "نهر المجره" ليحوله إلى "منثور من النوى والنويات السديمية" (ص ١٠٥)، بدلا من النور الذي له مركز وقوام يظهر عالم بلا مركز

أثر جمال حمدان

وهناك قضية خاصة ولكنها عامة (غير ذاتية تماما وغير موضوعية تماما) في ذات الوقت (ثنائية حمدانية) رهي علاقتي ومدى تأثري به . قرأت هذا الكتاب حينما كنت أكتب موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية ؛ رؤية نقدية والتي صدرت عام ١٩٧٥. كنت أحس نحوه بالإعجاب الشديد سواء في أسلوب كتابته أم أسلوب حياته هذا الزهد العلمي الشديد، هذا الإعراض عن الدنيا الذي مكنه من إنجاز بعض جوانب مهمة من مشروعه المعرفي الضخم (ولعل هذا هو الذي شجعني على الاستقالة من الجامعة لأنجز مشروعي المعرفي) . ومن المفارقات التي تستحق التأمل أن هذا

الأستاذ الجامعي الذي ترك الجامعة، والمثقف الذي اعتزل الحياة الثقافية قد ألقى بظلاله على كل من الجامعة وحياتنا الثقافية.

ولكن رغم الإعجاب الشديد هذا يبدو أنني حين قرأت كتابه لأول مرة كنت أبحث ساعتها عن المعلومات شأني في هذا شأن أي باحث، ولكن يبدو أيضا أنني استوعبت في ذات الوقت منظومة فكرية كاملة ثم استبطأتها تماما دون أن أدري غير أني لم أدرك هذا إلا مؤخراً بعد أن انتهيت من كتابة موسوعة اليهود واليهودية والصهيونيه نموذج تفسيرى وتصنيفى جديد (والتي استغرقت معظم الفترة السابقة من حياتي) وجلست لأتأمل في مصادر فكري. وقد تزامن هذا مع كتابة هذه المقدمة، فهالني حجم تأثري به في طريقة تفكيره. لقد جاء في كتابه الكثير من المعلومات والوقائع فأخذت منها ما أخذت، واستبعدت ما استبعدت، ثم تبدلت المعلومات وتحورت، كما تتبدل المعلومات وتتحور، ولكن بقي ما هو أهم بقي فكره ورؤيته ومنهجه. فمن الواضح أنني تعلمت من جمال حمدان رفض الواحدية المادية العلمية والتعصب للمناهج الرياضية، وإعادة الاعتبار للخيال والمجاز والحدس في عملية التفكير العلمي. ومن أهم ما تعلمته منه هو الخروج بالظواهر اليهودية والصهيونية من دائرة التوراة والتلمود والدراسات اليهودية وإدخالها في نطاق العلم الإنساني العام ووضعها في عدة سياقات تاريخية لتصبح ظواهر مختلفة ذات أبعاد مختلفة وليست ظاهرة واحدة مغلقة تتسم بالوحدة. ولكن أهم ما تعلمته منه وهو ما تعلمته من أساتذتي (مثل د . إيميل جورج - د نور شريف - د. ديفيد واير) لريقة التفكير والنظر وكيفية التأمل في المعلومات وتفسيرها لقد تعلمت من جمال حمدان كيف تكتشف الآنماط داخل ركام التفأصيل المتغيرة وكيف تجرد الحقيقة من الحقائق ولا أدري هل تعلمت منه أيضا شيئا من الصلابة والقدرة عي المقاومة؟

.

أثر جمال حمدان لا يمكن أن تجده في سطر أو سطرين أو صفحة أو صفحتين من كتاباته، وإنما هو هناك بين السطور، وهذا هو أعمق الأثر. ولكن مع سيطرة النموذج التراكمي المعلوماتي، أهملت أهمية هذا النوع من التأثر فمجال البحث العلمي بالنسبة للكثيرين هو الحقائق وليس الحقيقة، هو المعلومات وليس الآنماط الكامنة وراءها، ولذا فحينما يدرس أثر كاتب على أخر فإن الدارسين عادة ما يبحثون دائما عن بضعة جمل وعبارات واقتباسات مباشرة نقلها الكاتب المتأثر بالكاتب المؤثر (وهكذا عدنا مرة أخرى لشركات النقل!) . وقائمة المراجع فيما يكتب من دراسات

تدور في إطار هذا النموذج المعلوماتي، مما يعني أن إسهام عشرات المفكرين والمعلمين في صياغة أفكار الدارسين لا يعترف به لأنه مثل هذا الإسهام لا يوجد في سطر بعينه أو في صفحة محددة، وما يوجد بين السطور لا يقاس ولا يمسك بالحواس الخمس ولذا فهو غير موجود من منظور كمي معلوماتي.

كما أنني يمكنني أن أثير قضية أخرى وهي لِمَ لم يؤثر جمال حمدان في هؤلاء الذين يكتبون دراسات في نفس الموضوع بطريقة تتناسب مع حجمه الفكري. يمكنني القيل أن النموذج المعلوماتي التراكمي قد سيطر تماما وحول كل شيء (الآراء والرؤى والأحلام والآلام) إلى معلومات. ولذا تحولت كتابات هذا المفكر الفذ إلى مادة أرشيفية، يتناولها بنهم الكتاب المعلوماتيين . وأعتقد أن معظم ما يكتب هذه الأيام يكتب صدورا عن هذا النموذج، ولكن الأسوأ من هذا أن ما يقرأ الآن يقرا بنفس الطريقة، وهكذا تضيع الحقيقة ولا يبقى سوى الحقائق !

والتكريم الحقيقي لجمال حمدان لابد وأن يأخذ شكل محاولة التوصل لا إلى ثمرة فكره وإنما إلى طريقة تفكيره، لا إلى ما قاله وذكره وأورده من معلومات وحقائق ووقائع وإنما كيف توصل إلى ما توصل إليه من نتائج وكيف نجح (أو أخفق) في توصيله . ولابد وأن نكتشف طبيعة مشروعه البحثي ونبين ما أنجزه منه وما لم ينجزه - فهناك أجندة بحثية

بين السطور علينا أن نصل إليها ونبينها للأجيال . إن جمال حمدان وضع أساس خطاب تحليلي جديد، لم يلتزم به هو نفسه أحيانا، وهذا هو شأن الرواد دائما. علينا أن ندرس هذا الخطاب ونصل إلى برنامج بحثي يحوي الإشكاليات الأساسية التي طرحها جمال حمدان، ثم نكمل المسيرة وبذا لا تضيع حياته هدرا وتكتسب عزلته معنى، ويتحول إنجازه الفكري الشامخ من مجرد مجموعة أفكار مرصوصة وكتابات مصفوفة تسحب من الخزائن في المناسبات العامة ليكرم اسم صاحبها ثم تعاد مرة أخرى، لتستمر في الرقاد . يتحول هذا الآنجاز الشامخ إلي رصيد حي يضاف إلى رصيد هذه الأمة الفكري فيزيدها علما وحياة . والله أعلم

دمنهور والقاهرة ٥ فبراير ١٩٩٦ ١٦ رمضان ١٤١٦

اليهود انثروبولوجيا

"إن العرب واليهود أبناء عم من الناحية العنصرية" بهذه الجملة الخطيرة وبهذا الجزم القاطع يخاطب فيصل بن الحسين الهاشمى الذى سيصبح ملكا على العراق فيما بعد ، يخاطب القاضى الامريكى اليهودى فيلكس فرانكفورتر فى ١٩١٩ . وهو بعد أن يضيف إلى قولته التشابه فيما تحمله العرب واليهود من اضطهادات ومظالم وفيما تمكنوا من القيام به فى طريق تحقيق أهدافهم القومية ، يرتب على تلك المقدمة نتيجة سياسية تتفق معها فيما يبدو له وهى "أننا سنرحب باليهود ترحيبا قلبيا فى عودتهم إلى البلاد... وهناك مجال فى سوريا يتسع لنا جميعا". ويعود نفس المتحدث إلى نفس الفكرة ليؤكدها فى مؤتمر الصلح بباريس فى نفس العام فيعلن أن "هناك صلات وثيقة من القرابة والدم بين العرب واليهود ، كما أنه ليس ثمة تعارض واضح فى الصفات المميزة للشعبين" .

وبعد نحو نصف قرن من هذه التصريحات التي تصدر على مستوى القيادة السياسية ولكنها تتكلم، أو تسمح لنفسها أن تتكلم، كما لو بلسان الأنثروبولوجيين، تعود نفس النغمة لترتفع على نفس المستوى وبنفس اللسان ، حين أعلن السعودى فيصل أثناء زيارته للولايات المتحدة فى العام الأخير انه لايكن شيئا ضد اليهود (يقصد تمييزا لهم عن الصهيونيين) "لأننا ابناء عمومة فى الدم" وهذا حسين الاردن أخر الهاشميين يأتى من بعده ليعلن أخيرا جدا أن العرب واليهود عاشوا مراحل طويلة فى التاريخ جنبا إلى جنب

وفى صداقة وتعاون كأقارب وجيران .. عميقة إذن هذه الفكرة ، فكرة قرابة الدم بين العرب واليهود ، ومنتشرة متفشية هى إذن بين الكثيرين لا فى الخارج فحسب ولكن بين العرب أنفسهم ، بل وعلى مستوى قياداتهم، بغض النظر عن كونها قيادات رجعية دعية فرضت أو فرضت نفسها عليهم. ولاجدال أن لهذه الفكرة نتائجها وتخريجاتها السياسية التي يمكن أن تترتب عليها، كما فعل فيصل بن الحسين فى الواقع حين رحب باليهود فى سوريا فى النص السابق! فرغم أن من الثابت المقرر فى القانون الدولى أن ترك شعب لوطنه آلافا سحيقة من السنين لايمكن إلا أن يحرمه كل حق فى المطالبة بالعودة إليه الآن ورغم أن الفقهاء الدوليين يسخرون من مجرد فكرة اعادة

تشكيل الخريطة السياسية للعالم على أساس غزوات وهجرات وتوزيعات الماضى الغابر ، الأمر الذى يمكن أن يقلب صورة الدنيا رأسا على عقب بشكل ساخر بل سخيف لايتصور ، نقول رغم هذا كله فإن فكرة قرابة العرب واليهود فى الدم قد يمكن أن تلقى بعض ظلال على قضيتنا المصيرية الأولى فى فلسطين ، وقد يمكن أن تفتح بابا للحلول الخاطئة أو الخائنة، سيئة النية أو ساذجة النية .

وليس هذا مجرد استدلال أكاديمي أو أسقاط منطقى ، وإنما هو بالفعل مانجده فى أكثر من دائرة من الدوائر العربية وغير العربية . فليس بعيدا مشروع الملك عبدالله، الذى اقترحه بنفسه على بريطانيا حلا لمشكلة فلسطين فى الأربعينات من انشاء "مملكة سامية" يكون هو على رأسها ويكون لليهود فيها حكمهم الذاتى! وفى السنوات الأخيرة ترددت فكرة "الاتحاد الفيدرالى السامى" بين بعض اليهود من صهيونيين وغير صهيونيين وضد صهيونيين .

ولعلنا أن نكتفى منها هنا بذكر مشروع الفريد ليلينتال فى كتابه الأخير الذى يقترح فيه ان يعود الصهيونيون الإسرائيليون الذين من أصل اوروبى إلى أوروبا ، ويبقى الإسرائيليون الذين هم من أصل شرقى فى فلسطين ، وذلك مع عودة عرب فلسطين اليها ليعيشوا معهم فى دولة واحدة جديدة، تدخل مع الوقت فى علاقات اقتصادية مع بقية الدول العربية متطلعة إلى اتحاد اقتصادى مع الأردن وغزة ومتجهة فى النهاية إلى "اتحاد سامى" كبير!

لسنا هنا بصدد مناقشة هذه المشروعات أو نقدها، فكل حل لايعيد الوضع إلى ماكان عليه قبل ١٩٤٨ بل قبل ١٩١٨ مرفوض بلا نقاش، وكل حل لا يزيل إسرائيل من الوجود لامحل له من البحث العلمى، ولكن سؤالنا المحورى هاهنا هو الأساس الجنسى المزعوم فى تلك المشروعات : أحقا نحن اقارب اليهود وأبناء عمومتهم ؟ على أي أساس علمى ذلك، وأي دليل تاريخى ينهض بذلك ؟ واضح أن المجال هو مجال الآنثروبولوجى والآنثروبولوبجيا - علم الإنسان - بما يحلل من تاريخ قديم وحديث وبما يدرس من لغة ووثائق

دينية وبما يقيس من أجسام وصفات تشريحية ووراثية ... إلخ .

ونحن نلاحظ أن أغلب كتاباتنا فى العربية عن العدو الإسرائيلى تأخذ فى جملتها الصبغة السياسية المباشرة أو غير المباشرة التي تعامل العدو كمعطيات مفروغ منها أو ككم معلوم بدرجة أو بأخرى دون أن تحاول أن تنفذ إلى حقيقة كيانهم وتركيبهم : فالكل يهود أو صهيونيون ، والكل يعيشون

فى كنف الاستعمار وحمايته ، والكل أتى بصورة غامضة من نسل يهود الشتات الذين أتوا بدورهم بطريقة ما من سلالة. يهود فلسطين التوراة .. الخ . وفى هذا الإطار التجريدى الضيق ، أو المتعجل غير المستأنى - الذى قد يكون عمليا ومفهوما فى ذاته - تبدو صورة العدو فى أذهاننا باهتة عائمة بالغة السطحية، وتبدو أحيانا أكاد أقول - كما لو كنا نطارد شبحا! ونحسب أننا لهذا كله بحاجة إلى دراسة علمية محققة تقتنص هذا الشبح ، تجسده ، ثم تشرحه أصلا وتاريخا، جنسا وتركيبا، تطورا وتوزيعا... إلخ .

ونحن هنا سنبدأ بالأصول القديمة فى التاريخ الجنسى والدينى، ثم نتتبع انتشار اليهود فى العالم هجرات وتوزيعا ، حتى إذا ما اكتملت لنا الصورة الراهنة حللنا التكوين الآنثروبولوجى لليهود حتى نعرف من هم وما الدماء التي تجرى فى عروقهم، وإلى أي حد ينتمون إلى أصولهم الأولى ومن ثم إلى أية درجة من القرابة ينتسبون إلى العرب أو ينتسب العرب إليهم .

وفى تقديرنا أن مثل هذه الدراسة أصبحت ضرورة شرطية لأى فهم عربى سليم أو عرض لقضيتنا الكبرى بعد أن اختلط الأمر بالدعايات الصهيونية المغرضة المضللة وتزييف التاريخ وابتسار الحقيقة العلمية ذاتها. كذلك لابد أن نبادر من البداية فنحذر من أن كثيرا من الكتابات العلمية البحتة فى الموضوع ينبغى ان تتناول بحذر واحتراس شديدين لأنها تعتمد - فعلا إن لم تعترف علنا على المصادر اليهودية والصهيونية أساسا، وهى من ثم قد تنقل عمدا أو عن غير عمد وجهات نظر محددة ومحسوبه سياسيا ونحن من جانبا على صعوبة المحاولة نفسيا وقوميا لن نترك لتحيزنا السياسى الحق والواجب أن يتدخل فى معالجة علمية موضوعية، لا لسبب إلا لأن الدراسة العلمية الخالصة تؤازر - كما يتفق ولحسن الحظ - القضية السياسية وتدعمها ولاتتعأرض معها فى الجوهر والصميم. إن الحق والحقيقة - كما سنرى - فى جانبنا على حد سواء .

فى التاريخ القديم

أول مانسمع عن اليهود فى التاريخ مع إبراهيم - أبى الأنبياء إبراهيم الخليل الذى ظهر مع قومه فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد كجماعة من الرعاة الرحل على المشارف والتخوم الاستبسية لجنوب العراق الذى كان يؤلف دولة الكلدانيين فى أور . ومن قبل كان إبراهيم وقومه قد خرجوا من قلب الجزيرة العربية التي نشئوا فيها كجماعة من الجماعات السامية العديدة التي تأصلت فى ذلك "الخزان البشرى" الشهير الذى لم يتوقف عن أن يقذف كإقليم طرد وكصحراء فقيرة ولكنها ولود ، يقذف بالموجة تلو الموجة إلى منطقة الهلال الخصيب المتاخمة والجذابة .

ففى حوالى ١٨٠٠ ق. م. هاجر إبراهيم وقومه ، فى دورة عكس عقارب الساعة، شمالا بغرب ثم جنوبا على طول حواف الهلال الخصيب حتى وصلوا إلى حوران ثم إلى فلسطين . وهناك سيولد له إسحق ، ولإسحق سيولد يعقوب ، ومن أبناء يعقوب الاثنى عشر ستتأصل الأسباط أو القبائل الاثنتا عشرة الشهيرة فى التاريخ والتوراة .

ولكن هجرة إبراهيم إلى فلسطين وإن كانت أولى هجرات القبائل اليهودية فانها لم تكن الاخيرة، ذلك أنهم لم يأتوا مرة واحدة كجسم موحد ، وإنما على عدة دفعات جاءوا ومن عدة طرق وتحت عدة قيادات . والهجرة الثانية مثلا كانت فى القرن ١٤ ق .م .

ولابد لنا هنا من وقفة سريعة عند تسمية - أو بالأحرى تسميات - اليهود . ثمة تسميات ثلاث مترادفات : إسرائيل والعبريون واليهود . والأولى نسبة مباشرة إلى إسرائيل، الاسم البديل ليعقوب . أما العبريون فالمقول أنها مشتقة من هجرتهم من كلدان إلى كنعان حيث "عبروا" النهر - نهر الفرات أو نهر الأردن لاندرى أيهما المقصود تماما - فسموا بالعبرانيين. ويقابل هذه التسمية عند المصريين القدماء كلمة .Habiru، وعند البابليين Khebirru ولو أن هذه وتلك تعنى ، فى رواية، البدو أو اللصوص أو المرتزقة كما وصفهم اعداؤهم فى كنعان إشارة إلى طبيعتهم كرعاة متخلفين حضاريا بالنسبة لهم . أما التسمية باليهودية فتدل اصلا على أبناء يهودا Jehudah,Judah أحد أبناء يعقوب، الذين أصبحوا يمثلون البقية المهمة من بنى إسرائيل بعد

"الأسر البابلى، فصارت تطلق فيما بعد على الإسرائيليين جميعا. واسم يهودا نفسه قريب من اسم إله الشعب يا هو Jehovah ,Jahveh التي قد تكون بدورها تحريفا للنداء العربى ياهو (؟) .

كيف وجد اليهود فلسطين ؟ وجدوها أرض كنعان أساسا، نسبة إلى سكانها الكنعانيين .

والكنعانيون فى التوراة أبناء كنعان بن حام بن نوح ، وهم أول من سكن فلسطين على أرجح الآراء. وفى الدراسات السامية القديمة أن الكنعانيين ـ هم الآخرين قبيلة سامية من الساميين الشماليين ، جاءت أصلا من الجزيرة العربية منذ ٢٥٠٠ق. م. وفي رواية أخرى منذ ٣٥٠٠ ق. م وكانوا قد استقروا بفلسطين منذ ألف أو الفى سنة وأقاموا بها حضارة راقية . كذلك فإن جزءا من الكنعانيين كان قد رحل منها إلى الساحل اللبنانى حيث عرفوا بالفينيقيين.

ومعنى أرض كنعان هو الأرض المنخفضة . إلى جانب الكنعانيين فى فلسطين كان ثمة كوكبة أخرى من القبائل السامية الصغرى كالايدوميين والعمونيين والمؤابيين على تخوم أرض كنعان، خاصة حول جنوب البحر الميت . وثمة كذلك كان العموريون بعيدا إلى الشمال ، وهم أولاد أناك فى التوراة، وكانوا قد سيطروا على جزء كبير من فلسطين قبل الزحف المصرى الفرعونى نحو الشمال حوالى ١٦٠٠ ق . م وحتى نستكمل الصورة، يحسن أن نذكر ايضا.

خارج فلسطين ولكن بجانبها توا الآراميين الذين استقروا فى سوريا كموجة سامية منذ القرن ١٤ قبل الميلادأى فى تاريخ يتعاصر مع الموجة الثانية للعبريين . ولايبقى لنا الآن فى التتابع التاريخى سوى الفلسطينيين Philistines الذين يعدون - وحدهم تقريبا من بين كل العناصر والموجات المذكورة أحدث عهدا من العبرانيين فى المنطقة .

أصل هؤلاء من "شعوب البحر Sea-Peoples » المشهورين فى التاريخ القديم والذين أتوا من العالم الايجى بعامة وانتشروا فجأة وبصورة درامية على سواحل اللفانت أو مشرق البحر المتوسط نتيجة اضطرابات فى موطنهم لعلها نجمت بدورها عن تدفق الاغريق . فقدر للفلسطينيين ـ الذين يرجح البعض كريت أصلا لهم - أن يستقروا على ساحل أرض كنعان فى ١٢٠٠ ق. م ، أي أيام حروب طرواده ، حيث أعطوها اسمهم منذئذ .

وقد كان على العبرانيين ليستقروا بأرض كنعان أن يحاربوا الكنعانيين، ولكنهم لم يسيطروا إلا على التلال والأراضى الفقيرة الداخلية ، وظلت السهول الغنية فى أيدى الكنعانيين الأصليين .

وأغلب تاريخ اليهود فى تلك المرحلة تاريخ دموى لا اخلاقى يدور حول الحرب والغزو ، إلا أن الهزيمة كانت من نصيبهم غالبا، وعلى يد الفلسطينيين أقوى أعدائهم بصفة خاصة . اذا كان منتصف القرن ١٧ ق . م ، أي بعد ١٥٠ سنة فقط من هجرة إبراهيم، هاجر يعقوب وأولاده الى مصر بسبب القحط المشهور . وفيها استقروا بأرض جاشان (وادى الطميلات والشرقية) نحوا من ٣٥٠ سنة إلى أن خرج بهم منها سيدنا موسى (من الجيل السابع بعد إبراهيم) حوالى ١٣٠٠ ق.م وذلك هربا من اضطهاد فرعون (رمسيس الثانى) الذى استعبدهم "ومرر حياتهم فى الطوب والملاط" انتقاما منهم لتعاونهم فى خيانة واضحة مع الهكسوس غزاة مصر .

وفى التوراة أن قوة هذا "الخروج" كانت ٦٠٠ الف نسمة . وكانت العودة إلى أرض كنعان الهدف ، غير أن خوف اليهود من الكنعانيين "العمالقة" أدى بهم إلى المعصية فعقاب التيه فى سيناء ٤٠ سنة. ويرى البعض أن الحكمة من التيه، الذى امتد بذلك إلى مدى جيل كامل تاريخيا فى بيئة صحراوية قاسية جغرافيا، هو إخضاع اليهود لعملية صارمة من "الإنتخاب الطبيعى" تصفى وتستبعد منهم العناصر الضعيفة الخائرة وتنتخب العناصر القوية الصلبة ، وبذلك تديل من جيل هش منسحق إلى جيل مجدد فوار يصلح للرسالة . وهكذا كان ، إلى أن قادهم يشوع إلى نهر الأردن حيث انتزعوا بعضا من أرض كنعان فى الداخل ، ولكن دون العاصمة يبوس (القدس) وساحل الفلسطينيين .

وفى فجر الألف الأولى قبل الميلاد بالضبط (بالتحديد عام ١٠٠٠ق م) وحد داود الأسباط أو قبائل إسرائيل الاثنتى عشرة ، وهزم اليبوسيين والفلسطينيين وأسس ووسع مملكة إسرائيل حتى امتدت "أرض إسرائيل من دان فى الشمال إلى بير سبع فى الجنوب واتخذت من يبوس عاصمة لها بعد أن تحول اسمها إلى أورشليم lerouschoulaim أي مدينة السلام غير أن الدولة التي لم تصل قط أو لم تصل إلا بالكاد إلى الساحل لم تلبث أن انشطرت بعد خليفته سليمان صاحب الهيكل إلى مملكتين :

مملكة يهوذا جنوبا فى هضيبة يهودية ، وتضم قبيلتى يهودا وبنيامين، ومملكة إسرائيل شمالا فى السامرة، وتضم القبائل العشر الباقية . ومن المهم والطريف ان نلاحظ أن حدود هاتين الدولتين تتفق إلى حد أو أخر لا مع رقعة إسرائيل المزعومة حاليا وإنما مع رقعة الضفة الغربية من دولة الأردن ، والمهم أن الدولتين، اللتين أصبحتا متعاديتين متحاربتين، وقعتا فى سياسة المضاربة بين

مصر والعراق أو الخضوع لهما، فتعرضت المملكة الجنوبية لطرقات مصر مرتين الأولى على يد شيشنق والثانية على يد نخاو، إلى أن جاء دور المملكة الشمالية حين قضى عليها نهائيا سرجون الأشورى فى القرن ٨ ق.م (عام ٧٢١) ثم قضى نبوختنصر البابلى على الجنوبية فى القرن ٦ ق ٠ م . حيث دمر أورشليم والهيكل (٥٨٦ ق. م) وبذلك زالت إلى الابد دولة اليهود فى فلسطين بعد حياة طولها أربعة قرون فقط يغلب عليها الطابع الدموى العنيف، بينما أن كل إقامة اليهود المتصلة فى فلسطين لم تزد على ستة قرون ١٢٠٠ ق٠م حتى ٥٨٦ ق.م.

الشتات

الشتات البابلى

واذا كانت الفترات السابقة معا هى المرحلة التكوينية - سفر التكوين - فإن من بعدها يبدأ سفر الخروج والشتات diaspora الذى يمكن أن نميز فيه ثلاث دورات أو أربعا فقد بدأ سرجون بنقل كثير من إسرائيلى السامرة من أبناء القبائل العشر إلى بابل وأسكن مكانهم بعض أسراه من البلاد المفتوحة الأخرى. ولكنه نبختنصر بالذات الذى نقل أغلبية اليهود - أخرون يقولون ربع سكان يهودية أسرى إلى بابل ، والمقدر أن عدد اليهود قبل ذلك بلغ زهاء ثلاثة ارباع المليون .

ذلك كان "الأسر البابلى" الشهير الذى يمكن أن يعد الشتات الأول . واذا كان الفرس ، بعد أن هزموا بابل (على يد كسرى ٥٣٨ ق . م) واحتلوها وممتلكاتها فى فلسطين ، قد سمحوا لليهود بالعودة إلى أورشليم .

بعد نصف قرن من الأسر البابلى، فإن قلة ضئيلة هى التي عادت ، وتقدر بنحو ٥٠ ألفا ، وحتى هذه لم تجد ترحيبا لأن أرض أجدادهم كان يحتلها الآن اسرى سرجون الذين وطنوا بها، ولذلك أسكنوا فى منطقة يهودية الجنوبية حيث لم يطرب لعودتهم حتى اليهود المقيمون أنفسهم . أما الأغلبية المطلقة منهم فقد بقيت فى العراق حيث كونت مستعمرات مهمة نمت حتى بلغت فى عهد المسيح مليونا بل وأكثر من المليون فى القرون التالية إبان العصور العربية الإسلامية .

وقد امتد انتشار اليهود فى العراق. شمالا إلى كردستان. غير أن يهود العراق - مع كل سكانه - تعرضوا للابادة مع الطوفان المغولى حيث هوى عددهم إلى بضعة آلاف فقط.على أن يهود العراق كانوا نواة الشتات شرقا. فمنهم انشطر يهود فارس الذين غادروا العراق لأول مرة فى عهد كسرى ، ولكن هجرتهم الكبرى كانت فى القرن الثانى عشر لميلادى. وبالمثل كان يهود هيرات فى أفغانستان ويهود بخارى وسمرقند فى التركستان شظية من نواة فارس .

كذلك يقال أن يهود القوقاز - الذين يردون مستعمراتهم المبعثرة فى تضاعيف جبالها هناك الى العصر الأشورى ، ولو أن أول ذكر لها تاريخيا يرجع إلى القرن الخامس الميلادى - يقال إنهم أتوا من فارس ونواتها القديمة ، ومن هذه المراكز الأولية والثانوية يمكن أن نتتبع انتشار اليهود حتى

نهاياته ومستعمراته القصوى فى الشرق الأقصى بالهند والصين . ولعل من الجائز لنا أن نذكر هنا يهود الجزيرة العربية قبل الإسلام ، ولو أننا لانعرف على وجه الدقة تاريخ ظهورهم بها والطريق التي سلوكها اليها ، ومن ثم لاندرى اذا كان امتدادهم اليها يرتبط بالشتات البابلى أو بما تلاه من شتات. ففى الجاهلية الأخيرة كان اليهود غير قليلين فى مدن وسط الجزيرة وجنوبها خاصة الحجاز واليمن .

ففى الحجاز كانت المدينة وخيبر من معاقلهم ، بل كانت المدينة تحمل اسما يهوديا هو يثرب. غير أن الأرجح أن يهود الجزيرة كانوا فى معظمهم عربا محليين متحولين وليسوا من يهود فلسطين الوافدين . أما فى اليمن بالذات فقد تحولت اعداد كبيرة من سكان العصر السبئى إلى اليهودية ، بل " كان أحد ملوك سبأ فى القرن السادس الميلادى يهوديا هو ذو النواس. كذلك فقد كان المهاجرون الحضارمة الذين عمروا الحبشة وأسسوا الامبراطورية الحبشية يهودا أصلا ثم تحولوا مبكرا إلى القبطية غير أن ظهور الإسلام صفى اليهودية تماما فى الجزيرة العربية نفسها فيما عدا اليمن حيث ظل اليهود إلى وقتنا هذا .

هذا ، واذا كان شتات الأسر البابلى قد اتجه أساسا نحو الشرق، فمن المحتمل أن بعض الهجرة اتجهت غربا إلى شمال أفريقيا (المغرب) حيث يدعى اليهود ممن يسكنون الجبال اليوم ويتكلمون البربرية أن أجدادهم تركوا فلسطين اليها قبل الأسر البابلى نفسه، وحيث يسمون أنفسهم البلشتيم Plishtim والكلمة تحريف واضح لفلسطين . بل هناك المحتمل أن اليهود دخلوا شمال أفريقيا مع الفينيقيين، والمؤكد على أية حال أن اليهودية كانت منتشرة -. بالتحول - بدرجة ما فى حين ما بين عدة قبائل بربرية حتى ماقبل قدوم الإسلام .

الشتات الهللينى

أما الشتاء الثاني من شتات اليهود فيتعاصر مع المرحلة الهللينية التي بعد قرنين من السيادة الفارسية ، تبدا بفتوح الاسكندر وتستمر مع السلوقيين والبطالسة ثم البيزنطيين . والاتجاه العام فى هذا الشتات هو نحو الغرب هذه المرة .

فاذا كان بعض اليهود فى فلسطين قد قاوموا الصبغة الهللينية بعنف وقاموا فى القرن الثانى قبل الميلاد بالثورة المكابية المتعصبة التي انشات دولة يهودية ضد هيللينية ، فإن الكثيرين منهم انتشروا انتشارا واسعا بعيد المدى فى كل العالم الهللينستى والبيزنطى .

ففى مصر قدر أن ثلث سكان الاسكندرية البطلمية كان من اليهود ، كما يقال أنهم قاموا فيها بثورة قتلوا فيها ٢٢٠ ألفا من السكان الأصليين (؟) . وعدا مصر، فقد وجد اليهود فى سوريا وآسيا الصغرى من قبل بدرجة أو بأخرى . وعدا هذا وذلك، كان ثمة مركزان رئيسيان لتركز اليهود: البلقان ، وسواحل البحر الأسود الشمالية، وكل يسبق العصر المسيحى بوقت طويل . وربما أرسل يهود البلقان منذ ذلك الحين عناصر منهم إلى جنوب الروسيا خاصة كييف حيث كانت المنطقة خاضعة بشدة للمؤثرات البيزنطية . أما مركز ساحل البحر الأسود فكان قطبه القرم حيث ذهب كثير من اليهود مع الاغريق بعد الأسكندر . وقد أفلت هؤلاء اليهود من طرقات وموجات القوط والهون والتتار التي اجتاحت جنوب الروسيا .

غير أن للتتار هنا دورا مهما فى التاريخ اليهودى . فقد قامت منهم دولة فى القرن السابع الميلادى هى دولة الخزر التترية التي تحولت بالجملة تماما فى رواية أو تحول حكامها وطبقاتها العليا فى رواية أخرى ، إلى اليهودية فى القرن الثامن أي أيام شارلمان، بينما - بالمقابل - تحول اليهود المهاجرون، إلى لغة الخزر التركية المسماة بالجاجتاى Jagatai وبهذا أصبح فى المنطقة يهود أصليون مهاجرون ويهود متحولون من السكان المحليين .

وقد كان للخزر مركزان ، واحد على سواحل بحر قزوين (بحر الخزر عند العرب المعاصرين) عند مصب الفولجا ، والثانى فى القرم . وقد الغى المركز القزوينى فى القرن العاشر الميلادى ، ولكن المركز القرمى ظل حتى القرن الحادى عشر إلى أن تحطم على يد دولة كييف السلافية الجديدة التي

تمثل طلائع الدولة الروسية الحديثة. وعندها انتشر كثير من الخزر من يهود ومتهودين فى أجزاء كثيرة من جنوب الروسيا ، بالاضافة إلى ماعسى أن يكون دخلها من قبل من يهود البلقان المهاجرين حيث يمكن أن نتتبع ظهورهم - على الطريق فى روثينيا فى القرنين ١٠- ١١، وفى بولنده فى القرنين ١٢ - ١٤ .

وفى القرن الثانى عشر (عام ١١١٠ بالتحديد) منعت الروسيا نهائيا دخول أي يهود جدد بها وحددت للموجود منهم مناطق معينة لايقيمون خارجها، وهى التي ستؤلف النطاق الذى سيعرف «تاريخيا بحظيرة اليهود»

الشتات الرومانى والوسيط

يبقى لنا الآن الشتات الثالث والأخير فى تاريخ اليهود القديم . انه الشتات الرومانى الذى أخذهم بعيدا إلى العالم الرومانى أي إلى الغرب الأقصى بالنسبة إلى الموطن الأصلى فلسطين ، وذلك فى حركة مع عقارب الساعة ستستمر عبر العصور الوسطى حتى العصور الحديثة. وقد بدأ هذا الشتات فى الواقع مع الثورة المكابية، لكنه اكتمل مع الفتح الرومانى لفلسطين الذى يكاد يتعاصر بدقة مع بداية العصر المسيحى .

فلقد تواترت ثورات اليهود - الذين لم يعودوا يزيدون على اقلية من سكان فلسطين - على الحكم الرومانى الذى رد بتخريب اورشليم والهيكل وبإبادة اليهود فى مذبحة سنة ٧٠ ميلادية الفاصلة (تيتوس) التي صفت أغلبهم محليا وفر منها اقلهم إلى مصر وسوريا. غير أن بقايا اليهود عادوا إلى الثورة فى ١٣٥ ميلادية حيث قوبلوا بمذبحة نهائية (هادريان) ختمت الى الأبد على مصير اليهود فى فلسطين كدولة وكقومية . فعدا تدمير اورشليم والهيكل مرة اخرى، صفيت بقايا اليهود بالإبادة والهجرة .

فعن الأولى يقول جوزيفوس أن ١.٣٥٠.٠٠٠ قتلوا فى المعارك التي يعددها كما يقال ان ٩٠٠.٠٠٠ اخرين أسروا أو بيعوا كرقيق كما مات مئات من الآلاف غيرهم من المجاعات والأوبئة والمذابح. ويعلق هنتنجتون - وهو جغرافى يهودى لايخفى تعصبه - بأن هذه أرقام مبالغ فيها بلا شك، ويمكننا نحن أن ننبذها ونعدها خرافية تماما لأن الأدلة التاريخية وإشارات التوراة نفسها كما رأينا تضع كل تعداد اليهود فى حدود تقصر دون ذلك كثيرا جدا ولاتتجاوز ثلاثة ارباع المليون كحد أعلى . ومن الناحية الأخرى فإن البعض يقدر أن عدد من أبيد من اليهود فى هذه الثورة لايقل عن ٦٠٠ الف . فاذا صح هذا الرقم، ولعله أدنى إلى العقل ، فذاك انقراض جنسى حقيقى لم يكد يترك منهم شيئا وحتى هذا الذى تبقى تكفلت الهجرة القهرية بتصفيته. فقد حرم الرومان على اليهود دخول القدس نهائيا، وطردوهم من فلسطين إلى كل أجزاء الامبراطورية ، وكان هذا هو التاريخ الذى انتهت فيه والى الأبد علاقة اليهود بفلسطين سيآسيا وسكانيا. أنه الخروج الأخير. كذلك فقد قتل أو طرد كل اليهود فى قبرص . وحتى ندرك مدى ضألة

ماتبقى من اليهود بعد هذه المذابح والمطاردات ، يكفى أن نذكر أن عدد يهود الخروج الأخير هذا يقدر بنحو. ٤ ألفا فقط ! وهو رقم لابد أن نتذكره دائما لما سيكون له من دلالات جنسية وتاريخية وسياسية عميقة المغزى أما ماتبقى بعد هذا وذاك من يهود بفلسطين فشراذم ضئيلة ازدادت تناقصا فيما بعد بتحول بعض أفرادها إلى المسيحية. ولعل أهم تلك البقايا السامريون الذين تحولوا إلى قوقعة قزمية مغلقة فى نابلس(Schechem القديمة) حتى انها لاتزيد اليوم على مائة أو مائتين ! وفى بداية القرن التاسع عشر لم يكن عدد اليهود فى فلسطين كلها ليزيد على ١٠ آلاف نسمة .. والملاحظ أن تحولا جذريا طرأ على اليهود بعد هذه الإبادة الشاملة والتشريد. فتاريخهم قبل عصر التوراة وبعده تاريخ دموى حربى كله الغزو والعدوان. وتغلب عليهم فيه صفة الشراسة والعنف. أما بعد مجازر الأشوريين والبابليين ثم الرومان فقد تحول اليهودى فجأة إلى شخصية مستضعفة خانعة تحقق اغراضها بالوسائل الناعمة والملتوية وبالتزلف والمكر والخديعة .
ريرجع هنتنجتون هذا التحول فى الشخصية الجماعية إلى عملية الآنتخابات التي فرضتها تلك المجازر حيث بادت فيها العناصر المناضلة المقاومة ولم يبق إلا عناصر الجبن والمسكنة والخبث... الخ . ومنها ومن حينها أخذ اليهود طابعهم الذى عرفوا به فى كل العالم حتى اليوم .
على ان يهود الشتات الرومانى لم يأتوا من طريدى فلسطين وحدها وإنما كذلك من كل مستعمراتهم السابقة القائمة فى العالم الهللنستى. فتبعوا الرومان إلى إيطاليا وأسبانيا وفرنسا وألمانيا حتي الراين ، وكان طريق الرون - الراين - فرانكفورت، وهو طريق التجارة وشريانها التقليدى، خطا محوريا فى دخولهم العالم الرومانى . ومنذ القرن الثالث الميلادى على الأقل كانوا قد وصلوا إلى الراين ، حيث تحولت فرانكونيا بالذات إلى قاعدة رئيسية ونواة لهم وكادت عاصمتها فرانكفورت أن تكون عاصمة يهود الشتات الجديد. ومنذ ذلك الوقت نشات علاقة تاريخية وثيقة بين مدينة فرانكفورت واليهود ستظل عبر القرون حتى يومنا هذا .
ويقدر البعض عدد اليهود فى الامبراطورية الرومانية فى القرن الخامس الميلادى بما يتراوح بين ٤، ٧ ملايين أي نحو ٧% من مجموع السكان. وهذا الرقم أيا كان نصيبه من الدقة أو الصحة ينبغى أن نذكره جيدا وأن نقرنه فى الذاكرة بعدد بقايا يهود فلسطين عند الخروج الأخير والبالغ ٤٠ ألفا، لأن معناه أن اليهود فى الشتات ضاعفوا عددهم بين .

اقل من ٥٠٠ سنة وهو معدل فلكى لايمكن إلا أن يلقى ضوءا حاسما على طريقة نموهم ، إن تزايدا طبيعيا أو تزايدا بالتبشير والتحول .

بيد أن العصور الوسطى لم تلبث أن أتت بحروبها الصليبية التي أشعلت نار الاضطهاد ضد اليهود في جميع أنحاء أوروبا مثلما اثارتها ضد العرب خارجها وعلى أطرافها ومشارفها. هنالك بدات عمليات الطرد بالجملة والإبادة التي ستؤدى فى النهاية إلى تغيير جذرى فى توزيع اليهود فى أوروبا. ففى أواخر القرن الرابع عشر (عام ١٣٩٤) اختفى يهود فرنسا تماما بعد أن طردوا بالجملة منها وتشتتوا فى الدول المجاورة. أما يهود ايطاليا فظلوا متقوقعين بها حيث يتصل تاريخهم بلا انقطاع وحيث تلقوا - فضلا عن ذلك هجرات من يهود بلاد أخرى فيما بعد أما يهود ألمانيا وأسبانيا فسوف يكون لهم الدور الأكبر فى قصة اليهود فى العصور الحديثة. فهؤلاء هم الذين تعرضوا لأشد أخطار الإبادة والطرد ، ومنهم ومن نسلهم سيستمد التقسيم الثنائى الرئيسى الذى يفرق بين يهود شمال أوروبا من ناحية وجنوب أوروبا وحوض البحر المتوسط من ناحية أخرى ، أعنى ثنائية الأشكناز والسافردى على الترتب والاشكنازيم والسفآرديم كلمتان قديمتان فى التوراة استعارتهما التقاليد اليهودية فى العصور الوسطى لتميز بين يهود ألمانيا ويهود أسبانيا على الترتيب ، اعتقادا منهم بأن يهود ألمانيا ينحدرون من نسل قبيلة يهودا ، ويهود أسبانيا من نسل قبيلة بينامين. والسفارديم يعدون أو يدعون أنفسهم "ارستقراطية" اليهود على: الأساس الدينى، غير أنه قدر للاشكناز أن يؤلفوا الأغلبية الساحقة عدديا ٨٠ : ٩٠% فيما يقدر - والطبقة المسيطرة المتفوقة حضاريا الى حد يهتقرون معه السفارديم احتقارا لايحفلون بإخفائه .

فاذا عدنا إلى الشتات وبدانا بالأشكناز، وجدنا أن أول اضطهاد يتعرض له يهود الراين بألمانيا يبدا مع الحملة الصليبية فى القرن الحادى عشر (١٠٩٦) ولو أنهم كانوا قد بدأوا

يتسربون إلى العالم السلافى فى بوهيميا وبولنده قبل ذلك بقرنين أو أكثر. هنالك بدأت الهجرة الهاربة التي تسارعت خطاها مع الحملات التالية والتى اتجهت أساسا نحو الشرق. ونحو الشرق اتجهت لأن ملوك بولنده، الذين كانوا يعملون على زيادة سكان مدنهم، رحبوا بكل هجرة، فاغتنم اليهود الفرصة ، وكان خروجا بالجملة وصل إلى حد أثار فى النهاية مخاوف بولنده. غير أن انتقال جسم الأشكناز كان فد تم نهائيا، وتحولت نواة فرانكونيا القديمة إلى مجرد بقايا أو إلى شبح يذكر بالتوزيعات التاريخية الأولى ، وفى نهاية القرن السادس عشر لم يكن ثمة سوى ثلاث مدن المانية

مفتوحة لليهود هى فرانكفورت وفرمس وفيرت أما فى بولنده وجنوب الروسيا فقد التقى اليهود الألمان مع بقايا اليهود البيزنطيين ويهود الخزر الذين كانوا بدورهم قد بدأوا يطاردون نحو الشمال والغرب على يد الاضطهادات السياسية الشهيرة المعروفة فى الروسيا بالبوجروم Pogroms، والتى اتسع نطاقها ليشمل يهود بولندة بعد تقسيم هذه الدولة وانتقال الشطر الأكبر منها إلى الروسيا . وتتمثل أثار هذا اللقاء الآن من بين ماتتمثل فى يهود القرم الذين ينقسمون إلى يهود قرائين ، والى يهود القرمشاك Krimshaks الربانيين، كما تتمثل فى يهود ليتوانيا القرائين . والمهم أن ذلك اللقاء تحول ولم يكن له بد من أن يتحول - ليس فقط إلى شملية تراكم عددى وتكثيف وتكتيل لليهودية ستعطينا واحدة من كبريات تجمعاتها فى العالم حتى اليوم ، وإنها تحولت كذلك إلى عملية خلط ومزج وصهر سيسود فيها يهود الغرب الألمان عدديا وحضاريا على السواء. ومن أوضح وأبسط مظاهر هذه السيادة اللغة الجديدة التي نشأت عن التفاعل وهى اليديشية Yeddish المستمدة من اللهجة الألمانية العليا Hoch Deutsch التي حملها معهم يهود الغرب- وكلمة يديش نفسها تحريف واضح لكلمة يهودى بالألمانية والتى ستصبح اهم لسان بين ألسنة اليهود التي لا حصر لها . أما عن السفارديم فتبدأ قصتهم مع طرد اليهود - جنبا إلى جنب مع العرب .. من أسبانيا فى الاسترداد Reconquista» عام ١٤٩٢ بعد عصر من الاضطهاد والإبادة على يد محاكم التفتيش. والمقدر ان عدد يهود أسبانيا العربية وصل فى حين ما إلى حد المليون نسمة . انتشر هؤلاء اليهود فى فترات مختلفة إلى هولندا وانجلترا، والى ايطاليا وفرنسا، ولكن خاصة إلى شمال أفريقيا ابتداء من مراكش حتى تونس ، وبالأخص إلى الامبراطورية العشانية. ففى الامبراطورية العثمانية الحديثة التوسع وجدت الأغلبية الساحقة من السفارديم موطنها الجديد ، ابتداء من البلقان والدانوب حتى الآناضول والشرق الأوسط حيث كانت سالونيك والقسطنطينية من أهم بؤرات تجمعهم ، وحيث التقوا باليهود القدامى من بيزنطيين وسابقين للعصر البابلى سواء غرباء مهاجرين أو محليين متحولين وفى كثير من هذه المهاجر الجديدة أصبح السفارديم كالاشكنازيم فى مهجرهم الجديد - هم السائدين عدديا بين الجاليات اليهودية ، بل كادوا ان يكونوا العنصر الوحيد فى يهود مدن البلقان .

وفي كل هذا المجال الجغرافى اطلق عليهم اسم الاسبانيولىSpagnuoli Spaniol, كما حملوا اليه كالأشكناز لغتهم الاسبانية المحرفة المعروفة باسم اللادينو Ladino ، وظلوا حتى اليوم يلبسون لباسا خاصا ويبدون خصائص حضارية وثقافية تذكر بقوة بفترة إقامتهم الاسبانية .

الشتات الحديث

تلك قصة "اليهودى التائه أو المتجول" من أول شتات قبل الميلاد إلى أخر شتات فى مطالع العصور الحديثة. بيد أن هناك حلقة رابعة تتمم السلسلة ، وتتركز فى القرن أو القرنين الأخيرين ، ولا بأس أن نشير هنا بايجاز إلى خطوطها العريضة ولعلها خطان رئيسيان أو ثلاثة . وفيها جميعا سيكون الدور الأكبر بطبيعة الحال للاشكنازيم بحكم سيادتهم العددية ، واذا كان السفارديم قد ساهموا فى الشتات الحديث فبقدر محدود . والإنتشار الأول والأهم فى الفترة المعاصرة هو بلا شك انتشار العالم الجديد بمعناه الواسع والولايات المتحدة بصفة خاصة، ويمكن ان نميز فى هجرة اليهود إلى أمريكا الشمالية مراحل ثلاث، لكل منها قطبها الجغرافى، وثلاثتها ترسم معا حركة واضحة من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى. فالأولى تتفق مع مايعرف فى التاريخ الأمريكى "بالعصر الاستعمارى" فى القرنين السادس عشر والسابع عشر. ومصدرها الرئيسى أسبانيا والبرتغال، وقوامها السفارديم أساسا ، وطلائعها الأولى مبكرة حقا تتعاصر مع الآباء المهاجرين والبيورتان، ولكنها فى الجملة قوة محدودة. عددا أما المرحلة الثانية ففى اواسط القرن التاسع عشر تقع، وترتبط أساسا بأواسط أوروبا: ألمانيا بالدرجة الأولى ثم فرنسا. ذلك عصر الثورات والاضطرابات السياسية التاريخية فى القارة ، فكان خروج يهودى نشيط حمل إلى الولايات المتحدة نحو ربع المليون: فالمقدر أن ثورتى ١٨٣٠، ١٨٤٨ قذفتا إليها بنحو ٢٣٠ ألف يهودى .

أما المرحلة الثالثة ففترة محدودة حول دورة القرن من ١٨٨٥ إلى ١٩١٤، وكان قطبها المركزى فى الارسال الروسيا القيصرية يحف به هالة تشمل النمسا - المجر ورومانيا . وقد دخل الولايات المتحدة من اليهود بين ١٨٨١، ١٩١٠ زهاء ١.٥٦٢.٠٠٠ منهم ١.١١٩.٠٠٠ من الروسيا، ٢٨١ الفا من النمسا - المجر، ٦٧ الفا من رومانيا. وفيما بين ١٩٠٠، ١٩١٣ فقط هاجر من الروسيا ٩٦٤ الف يهودى إلى الولايات المتحدة ، ٦٠ الفا إلى كندا .
ذلك إذن تيار كثيف عرم من وسط وشرق أوروبا انفجر مع استمرار الاضطهاد والغربة من جهة ومع فتح باب الهجرة إلى الولايات المتحدة من جهة أخرى، انفجر ليستقر فى أمريكا الشمالية منذ

العشرينات من القرن الحالى وليصبح فيما بعد أضخم تجمع لليهود على وجه الأرض على وجه الاطلاق. كذلك انطلقت الهجرة إلى أمريكا اللاتينية بأغلب وحداتها السياسية خاصة البرازيل والأرجنتين .

أما فى العالم القديم فقد كانت كثافة وقوة الهجرة أقل بكثير، وكانت أستراليا وجنوب أفريقيا هما القطبين الأساسيين فيها ، غير أننا لاينبغى أن ننسى المجال السوفيتى حيث هجر بعض من يهود الروسيا إلى الشرق الأقصى السوفييتى وأقيمت لهم جمهورية خاصة هى جمهورية بيروبيدجان Birobidjan اليهودية فى حوض الآمور. ومحصلة كل هذه الهجرات أن الإنتشار الحديث توزع فى كل الاتجاهات ، أي على إطار دائرى حول النواة التاريخية القديمة، ولكن مركز ثقله المطلق كان دائما صوب الغرب الأقصى استمرارا لاتجاه المحور الأسى فى كل حركة الشتات اليهودى عبر التاريخ .

بعد هذا تمثل الفترة النازية فى ألمانيا الهتلرية دورة شتات جديدة . فقد أدى الاضطهاد النازى لليهود ، الذى وصل إلى قمته فى عمليات الإبادة الجماعية التي يقدر البعض جملة حصادها إن خطأ أو صوابا وإن حقا أو مبالغة بنحو خمسة ملايين يهودى ، أدى هذا إلى حركة خروج أو بالأحرى هروب من الرايخ وأوروبا الوسطى بعامة. وإذا كانت هذه الحركة قد جمعت كثيرا من يهود أوروبا فى فلسطين أثناء الحرب العالمية الثانية، فإن الجزء الأكبر منها اتجه إلى العالم الجديد خاصة الولايات المتحدة. فكانت عملية تفريغ ليهود وسط أوروبا وتكثيف ليهود الولايات المتحدة، كما كانت بداية عملية أو جريمة زرع إسرائيل .

وهذه الجريمة الأخيرة نفسها هى دورة جديدة فى - ماذا نقول - شتات اليهود ، غير أنها اختزلت وكثفت كل تاريخ اليهود فى الاضطهاد وعكسته على عرب فلسطين الشرعيين . إنها الدورة الصهيونية التي قامت بعملية "اسقاط" على العرب لكل تجربة يهود الشتات من إبادة وطرد وخروج ابتداء من الأسر البابلى حتى ضد السامية النازية . ومع اغتصاب فلسطين ، الذى تسميه الصهيونية بالكذب وللسخرية المريرة حرب الاستقلال" "والعودة إلى أرض الميعاد"

تشعبت تيارات وموجات الهجرة نحو بؤرة واحدة وجديدة . من بين هذه التيارات كان التيار الأوروبى هو السائد فى بداية صنع إسرائيل ، ثم تحول ، إلى آسيا، وبعدها إلى أفريقيا على الترتيب . ولما كان هذان المصدران الأخيران يقع أغلبهما فى العالم العربى ، بينما طرد عرب

فلسطين إلى البلاد العربية المجاورة، فقد وصل السفه الإسرائيلى الصهيونى إلى حد الزعم الفاجر بأن العملية كلها ليست إلا عملية "تبادل سكان" ! غير أن المستقبل القريب جدير بأن يثبت أن إسرائيل لن تكون إلا مجرد مرحلة فى رحلة الشتات التاريخية، مجرد جملة اعتراضية فى تاريخ فلسطين، وقريب هو لاشك "الخروج" الجديد ..

طوائف ثلاث

ونستطيع الآن بعد أن انتهينا من ديناميكية اليهود عبر التاريخ أن ننظر نظرة عامة إلى صورتهم الاستاتيكية الحالية كما تتمثل فى التصنيف الأولى لفئاتهم الطائفية. ولقد رأينا
التفرقة بين الاشكناز والسفاردى، ولكن لابد ان نضيف اليهود الشرقيين **Oriental Jews** هؤلاء لايقعون "داخل أي من المجموعتين الأوليين، وإنما يمثلون مجموعة قائمة بذاتها استمدت أصولها القديمة من فلسطين رأسا أو من مراكز يهودية ثانوية. وهم اذا كانوا - نظريا - الأقرب إلى الأصول الفلسطينية، فانهم الأقل عددا والأدنى مرتبة فى الهيراركية اليهودية ، فكل من الأشكناز والسفارديم ينظر اليهم نظرة احتقار وازدراء بلا مواربة .

أما توزيعا، فإن الأشكناز يشملون اليوم يهود غرب ووسط وشرق أوروبا، بالاضافة إلى خلاياهم الجديدة التي انشطرت فى العالم الجديد بقارتيه ، ثم جنوب أفريقيا وأستراليا، ويشمل السفاردى يهود البلقان والشرق الأدنى ، كما يشمل مستعمرات وجاليات مبعثرة على شواطىء البحر المتوسط الشمالية والجنوبيه، بالاضافة أخيرا الى امتداداتهم الحديثة ، والمحدودة فى العالم الجديد شماله والجنوب. أما اليهود الشرقيون فإليهم تنتمى مستعمرات فى شمال أفريقيا وفلسطين، ثم مستعمراتهم فى العراق واليمن ، ثم القوقاز وإيران والتركستان الروسية ، وكذلك الهند والصين . وبعض هذه التوزيعات يستحق شيئا من التفصيل . ففى القوقاز تنتثر شظايا اليهود الشرقيين تحت أسماء مختلفة : فثمة يهود الجبال فى داغستان من بقايا الخزر القدامى والذين يعيشون فى ثنايا الشعب اللزجى **Lesghians** ويتكلمون لهجة فارسية، وثمة يهود جورجيا فى تفليس خاصة، ثم يتمم الصورة الفسيفسائية يهود الشماخة **Shemakha** فى أذربيجان. أما فى فلسطين، فاذا كان اليهود المحليون قبل الاغتصاب هم من الشرقيين ، فقد جمعت الصهيونية بالهجرة بين المجموعات الرئيسية الثلاث بنسبة النصف من الأشكناز والنصف من السفارديم والشرقيين .

توزيع اليهود فى العالم

اكتملت لنا الآن فيما نأمل صورة هيكل التاريخ اليهودى على نحو ما، وآن لنا أن نضع التوزيع الراهن لليهودية العالمية Judenthum تحت المجهر وذلك قبل أن نتقدم لندرس انثروبولوجية اليهود جنسيا، فإن لتوزيع اليهود فى ذاته - واليهود بالذات قيمة ودلالة انثروبولوجية حاسمة كما سنرى. ولعل من الواضح الآن أن الذبذبة العنيفة
مابين نمو وتناقص هى ملمح أساسى جدا فى كيان اليهودية العالمية، شأنها تماما شأن السيولة الجغرافية النادرة المثال فى توزيعها المكانى .
إنها إذن ذبذبة مزدوجة فى الزمان والمكان ، بل لعلهما هنا جانبان لشىء واحد. إلا أن الذبذبة العنيفة فى الزمان تجعل نمو اليهود فى نهاية المطاف وعلى المدى الطويل أقرب إلى الجمود والتوقف النسبى. فكلما نموا بالزيادة الطبيعية سرعان ماتحصدهم الاضطهادات فيعودون إلى نقطة البدء من جديد. أما الذبذبة فى المكان فتنتهى إلى تغيير جذرى ومثير فى أوطانهم الاقليمية بصورة انقلابية تماما.
ونحن نستطيع هنا أن نعرض "لقطتين" لتوزيع اليهود بين تاريخين متباعدين بما فيه الكفاية لندرك هذه الذبذبات الانقلابية. الأولى فى العقد أو العقدين الأخيرين من القرن الماضى ، والثانية فى يومنا هذا، فحولنا ١٨٨٠ وبعدها قدر عدد يهود العالم بنحو ٦٫٥ مليون نسمة ، منهم ٥٫٥ مليون فى أوروبا وحدها بنسبة ٨٤٫٥ %، ٤٢ الفا فى أفريقيا بنسبة ٦٫٥%. و ٢٥٠ ألفا فى آسيا بنسبة ٤% والبقية فى أمريكا وأستراليا.
أما حوالى نهاية القرن أو دورته فقد قدر عدد يهود العالم بنحو ٨ إلى ٩ ملايين. من هؤلاء كان ٦ - ٧ ملايين يتوزعون فى أوروبا وحدها أي بنسبة ٨٠% وهناك فى أوروبا، حيث التوزيع أو الكثافة أبعد شىء عن التجانس، كان مركز الثقل يتحدد فى دائرتين يفصل بينهما برزخ أو انخفاض عميق : دائرة فى الشرق وأخرى فى الغرب .
فالأولى دائرة الأساس، وهى بالفعل دائرية شكلا ، تغطى جنوب غرب الروسيا وجنوب دويلات البلطيق وكل بولندة (والأخيرتان كانتا تابعتين للروسيا سيآسيا) ثم أقصى شرق ألمانيا حيث اشتد

طفح يهود بولندة بدرجة خطيرة أثارت صيحة ضد السامية ، ثم أخيرا امبراطورية النمسا - المجر شمال الدانوب. وحدود الدائرة شرقا فى الروسيا قاطعة حادة بحكم القانون الذى قصر اقامة اليهود على مناطق معينة ، وترسم قوسا من القوقاز إلى البلطيق .
أما فى مجموعها فتزن الدائرة أكثر من ٦ ملايين يهودى : إنها ببساطة قطب اليهودية فى العالم. وثقلها الطاغى هذا وحده يجعلنا نفترض لها أكثر من مصدر تاريخى، فليس من المعقول أن نفترض أنها استمدت كل جسمها من الدائرة الصغرى وحدها إلى الغرب ، بل لابد كذلك أن نفترض المصدر الشرقى عن طريق القوقاز ، إلى جانب التحول الدينى المحلى . من هذه الدائرة يحتل جنوب غرب الروسيا القلب المطلق ، فكان فى الروسيا نحو ٤ - ٥ ملايين أي نصف يهود العالم. ولكننا حين نقول الروسيا فإنما نقصد معها الجزء الأكبر من بولندة الذى ضم إليها فى التقسيم السياسى "Polognerusse" والذى كان هو النواة النووية الحقة فى كل دائرة اليهود الشرقية. بل يذكر البعض أن يهود بولندة وحدها كانوا يؤلفون نهف يهود العالم. أما بقية التوزيع فكانت النمسا - المجر تلى بنحو مليونين ، ثم رومانيا بحوالى: ٦٠- ٧ الف أما عن الدائرة الثانية فى الغرب فهى أصغر بكثير، تنتشر فى حوض الراين بعامة وفرانكونيا والألزاس واللورين وهولندا بخاصة ، وتستقطب جميعا حول مدينة فرانكفورت . فكان بكل ألمانيا ٧٠ ألف، الجزء الأكبر منهم فى حدود هذه الدائرة، وكان بهولندا ١٠٠ ألف ، وبفرنسا ٨٠ الفا. اما خارج هاتين الدائرتين فتقل أعداد وكثافات اليهود كثيرا أو كثيرا جدا : بريطانيا ١٠٠ الف أغلبهم فى لندن ، إيطاليا ٥٠ الفا ، أما اسكندناوة فكان اليهود ممنوعين حتى منتصف القرن تقريبا، وفى أسبانيا لم يكن ثمة يهودى على الاطلاق منذ "الاسترداد" أما خارج أوروبا فكان المقدر ان يهود الولايات المتحدة لايزيدون حينذاك رغم بداية تدفق الهجرة من الروسيا - لايزيدون عن نصف المليون مبعثرين فى مدنها الكبرى، منهم ربع مليون فى نيويورك . وفى ١٩٠٥ قدر عدد يهود العالم بأكثر من ١١ مليونا، نصفهم فى الروسيا ورومانيا، وثلثهم فى ألمانيا والنمسا، والسدس فى بقية العالم. ولكن أثر الهجرة إلى العالم الجديد كان قد بدأ، فإن أغلب هذا السدس الأخير أو نحو ١٣ %من مجموع اليهود كان يحتشد فى الولايات المتحدة وحدها .
ماذا تعنى هذه الأرقام وتلك التوزيعات ؟ مهما يكن من أمر ، وبغض النظر عن التطورات الطفيفة فى التوزيع بين تلك التواريخ المتقاربة ، فإن ملامح الصورة العامة واضحة، فأوروبا هى عمليا

الوطن المطلق لليهودية العالمية، ومايوجد خارجها ليس بالمقارنة إلا شظايا. وعلى مستوى النظرة الكلية يمكن ان نتصور ثلاث دوائر هى أقطاب التوزيع حتى نهاية القرن الماضى ، تقع على عروض متقاربة ولكنها تتضاءل بسرعة وبشدة اقطارا واحجاما من الشرق إلى الغرب : دائرة شرق أوروبا ومركزها بولندة الروسية ، ودائرة غرب أوروبا ومركزها الراين وفرانكفورت ، وأخيرا دائرة الولايات المتحدة ومركزها نيويورك لننظر الآن إلى توزيع اليهود المعاصر لنرى الانقلاب المطلق، فقط لنذكر أولا ان الصورة فى أوروبا قبل النازية والحرب الثانية كانت تختلف كثيرا فى أساسياتها عن صورة نهاية القرن ، وفى نفس الوقت كانت تتشابه. تتشابه من حيث أنها تمثل تكثيفا تراكميا لتلك الصورة بحكم التزايد الطبيعى ، وتختلف فى أنها بدأت تعكس نتائج وأثار الهجرة إلى العالم الجديد بصورة حاسمة .

إنها باختصار تمثل مرحلة الانتقال من نمط منتصف القرن التاسع عشر إلى نمط منتصف القرن العشرين . ففى عام ١٩٣٩ قدر يهود العالم ١٥ مليونا، (ولعل هذه أعلى قمة سجلتها ديموغرافية اليهود فى تاريخهم ، فبعدها جاءت ابادة النازية التى - وان رفضنا مبالغات وتهويل الدعايات الصهيونية - حصدت منهم لاشك عددا كبيرا) اما عن التوزيع، فالمقدر أنه كان بأوروبا ١٠ ملايين أي الثلثان، منهم ٣ ملايين فى الاتحاد السوفييتى ، ٣ ملايين فى دول شرق أوروبا الجديدة وهى دويلات البلطيق وبولندة، أما أمريكا فكان نصيبها ٥ر٤ من المليون ، وآسيا ثلاثة ارباع المليون .

أما عام - ١٩٦٦ - وبعد أن عاد اليهود إلى النمو الطبيعى منذ نهاية الحرب، فإن عددهم يقدر بنحو ٤ ر ١٣ من المليون. والرقم قبل أن ندخل إلى تحليل جزئياته - جدير بوقفة تأمل ، فإن له أكثر من مغزى . فأولا ، اذا تذكرنا عدد اليهود فى القرن الخامس الميلادى (٤- ٧ ملايين) فإن معناه ان اليهود فى ١٥٠٠ سنة لم يتضاعفوا إلا مرة واحدة أو اثنتين و ثلاث بينما كانوا قد ضاعفوا أنفسهم فى القرون الخمسة السابقة بمعدلات خيالية ! ولا تفسير لهذا إلا ميكانيكية النمو والتناقص بالتناوب، أو ميكانيكية شد الحبل المزمنة بين قوى النمو الطبيعى وقوى الاضطهاد والإبادة .

ثانيا، وفى الاطار الكوكبى، يبدو اليهود على الفور شيئا ضئيلا بالغا حد القزمية فى ديموغرافية العالم: ٤ر١٣ من المليون من أكثر ٣٣٠٠ مليون، أو ٢ - ٤ فى الالف من سكان العالم، وتبدو اليهودية بسهولة قوقعة دينية حفرية ضامرة والواقع ان اليهودية، وحدها من بين الأديان

السماوية، هى التي تشترك مع كثير من الديانات غير السماوية، فى انها ديانة "مقفلة أو مغلقة" اى تحجم عن التبشير وتجتر نفسها أبدا. واذا كان البعض يصنف الديانات المقفلة هذه إلى نوعين : ديانات "جغرافية" وديانات "عنصرية" يعنى على الترتيب ديانات محلية التوزيع قاصرة على وطن أو بيئة محدودة، أو مرتبطة بقوم أو عنصر بعينه - فإن اليهود يمثلون شذوذا يكاد يصل إلى حد المتناقضة الفذة . فهم قد بداوا ديانة جغرافية وعنصرية معا ، وبصرامة قاطعة ذلك ، ولكن منذ الشتات انتشروا أيدى سبأ فى أرجاء العالم لتصبح اليهودية عالمية أو شبه عالمية بمجرد توزيعها، وإن كانت أبعد شىء عن العالمية بحجمها القزمى الضئيل. كذلك فقد تخلط اليهود كما سنرى - وداخلهم بالتحول والتزاوج دماء عناصر شتى لاحصر لها، فما عادوا عنصرا بعينه متجمدا على الديانة، ولا الديانة عادت مرادفة لعنصر جنسى واحد. ومع ذلك فاليهود واليهودية، بالسياسة والمذهبية ، تمثل عنصرية عاتية غاشمة تلخصها فى كلمة واحدة الصهيونية المعاصرة . والآن كيف يبدو نمط توزيع هذه الأقلية الدينية العالمية ؟ الجدول الآتي ، الذى يدور حول أواخر الخمسينات وكما اورده كتاب (اليهودية العالمية World Jewry لايعطى إلا ١٢ مليونا كمجموع كلى، ولذا فهو يقدم صورة رقمية قد تختلف قليلا عن صورة اليوم، ولكنه يظل يعطى نسبا صحيحة بوجه عام

القارة	عدد اليهود	٪
أوربا (بكل الاتحاد السوفيتى)	٣,٤٠٠,٠٠٠	٢٨,٨
أمريكا الشمالية	٥,٤٣٣,٠٠٠	٤٥,١
أمريكا الجنوبية	٦٣٣,٠٠٠	٥,٣
آسيا	١,٨٥٥,٠٠٠	١٥,٤
افريقيا	٥٨٥,٠٠٠	٤,٩
استراليا ونيوزيلند	٦١,٠٠٠	٠,٥

والحقيقة الكبرى التي يكاد يضج بها الجدول هى أن نصف يهود العالم جميعا يعيشون فى العالم الجديد، السواد الأعظم منهم فى أمريكا الشمالية التي تعنى عمليا الولايات المتحدة بالتحديد. هذا بينما لاتضم أوروبا، وهى التي كانت منذ نصف قرن حتى نهاية القرن الماضى تحتكر ٨٠ % من يهود العالم، لاتضم إلا مايزيد على الربع قليلا. انقلاب كامل ، وانتقال مطلق لمركز الثقل! وهو

انتقال فى نفس الاتجاه وعلى نفس المحور التاريخى لحركة ورحلة اليهودى التائه : إلى الغرب دائما .

أما آسيا وأفريقيا فلا تجمعان معا إلا خمس اليهودية ، وهذا أيضا شذوذ طارىء جديد لأن النسبة الكبرى منهم تتشكل من صهيونية إسرائيل الدخيلة الغاصبة، وبغيرها لاتزيد آسيا وأفريقيا على ٧ - ٨ % من يهود العالم، بل يهوى عدد يهود آسيا إلى ١٣٦ الف فقط وتهوى نسبة آسيا إلى ٥ر٢ لتصبح أقل من أفريقيا وأقل القارات جميعا باستثناء أستراليا . أما داخل القارات ففى هذا الجدول انعكاس لأهم ملامحها بحسب أرقام "اليهودية العالمية" سابق الذكر، علما بأن النسب المئوية تشير إلى نسبة يهود كل دولة إلى سكان تلك الدولة .

الدولة	عدد اليهود	%
كندا	٢٣٣,٠٠٠	١,٤
الولايات المتحدة	٥,٢٠٠,٠٠٠	٣,١
الأرجنتين	٣٦٠,٠٠٠	١,٨
البرازيل	١٢٠,٠٠٠	٠,٢
أوروجواى	٥٠,٠٠٠	٢,٠٠
النمسا	١١,٨٠٠	٠,٢
بلجيكا	٣٥,٠٠٠	٠,٤
هولندا	٢٦,٠٠٠	٠,٢
تشيكوسلوفاكيا	٢٠,٠٠٠	٠,٢
بريطانيا	٤٥٠,٠٠٠	٠,٩
فرنسا	٣٥٠,٠٠٠	٠,٨
بولنده	٤٥,٠٠٠	٠,٢
المانيا	٣٠,٠٠٠	٠,٠
المجر	١١٠,٠٠٠	١,١
ايطاليا	٣٢,٠٠٠	٠,٣
رومانيا	٢٢٥,٠٠٠	١,٣
الاتحاد السوفيتى	٢,٠٠٠,٠٠٠	٠,٨
تركيا	٦٠,٠٠٠	٠,٢
المغرب	٢٠٠,٠٠٠	٢,١
الجزائر	١٣٠,٠٠٠	١,٤
تونس	٨٠,٠٠٠	٢,١
مصر	٤٠,٠٠٠	٠,٢
أثيوبيا	١٢,٠٠٠	٠,١

الدولة	عدد اليهود	٪
جنوب افريقيا	١١٠,٠٠٠	٠,٧
الهند	٢٥,٤٠٠	٠,٠
ايران	٨٠,٠٠٠	٠,٤
اسرائيل	١,٧١٩,٠٠٠	٨٩,٢
سوريا	٥,٠٠٠	٠,١
لبنان	٦,٠٠٠	٠,٤
اليمن	٣,٥٠٠	٠,١
عدن	٨٠٠	٠,١
استراليا	٥٧,٠٠٠	٠,٦

والجدول حافل بالحقائق المثيرة الجديرة بكل ملاحظة وتدبر . فأولا ، كما انتقلت الصدارة من أوروبا الى أمريكا الشمالية، انتقلت من الروسيا (الاتحاد السوفييتى) إلى الولايات المتحدة التي هى اليوم المعقل الأكبر لليهودية حيث تضم وحدها ٤٤ % منها. وقد نما عدد اليهود فى الولايات المتحدة من ٤.٠٨١.٠٠٠ في ١٩٢٦ إلى ٤.٤٦١.٠٠٠ فى ١٩٣٦، ثم ظل بعد ذلك يرد لسنوات طوال متتابعة على أنه ٥ ملايين بحسب تقدير الأجهزة اليهودية. وكما يعلق بيرجل فذاك مجرد تقدير تخمينى لاشك ، وأهم من ذلك أنه مبالغ فيه على وجه اليقين ككل أرقام الأقليات . وأيا ماكان، تظل كتلة الولايات المتحدة هى اضخم حشد يهودى فى العالم .

ثم يأتى الاتحاد السوفييتى كالثانى فى العالم بسدس مجموع اليهود أو حوالى ١٦ . وبهذا تكون الولايات المتحدة والاتحاد هما الدائرتين الكبريين الآن فى محيط اليهودية العالمية اللتين ورثتا دائرتى شرق أوروبا والراين فى القرن الماضي ، أو قل إن دائرة الراين الصغرى هاجرت وعبرت المحيط لتصبح هى مركز الثقل الطاغى .

ويلى الاتحاد إسرائيل الصهيونية فى فلسطيننا المحتلة لتكون الثالثة فى العالم ، وهى لاتضم من يهود العالم الا ١٢%.

واذا كانت هذه هى أرقام أواخر الخمسينات فقد نشرت أخيرا أرقام حديثة عن تعداد اليهود فى الدول الثلاث السابقة يمكن على أساسها ان نرى تغيرا ملحوظا فى اوزانهم . فالكتاب السنوى اليهودى الأمريكى يقدر عدد يهود العالم فى أول ١٩٦٦بنحو ٤ر١٣ من المليون نسمة ، منهم

٥ملايين فى الولايات المتحدة أي بنسبة ٣٧ % ٠٠٠ر ٤٨٦ ر٢ فى الاتحاد السوفييتى بنسبة١٨% ٠٠٠ر ٢٢٩ ر ٢ فى إسرائيل بنسبة ١٦ % وبمقارنة هذه الأرقام والنسب بأرقام أواخر الخمسينات يرجح لدينا أن بعض التغييرات هى
فى الحقيقة مجرد تصحيحات لأرقام تقريبية سابقة. والمهم على اية حال ان نسبة الولايات المتحدة قد انخفضت قليلا، بينما ارتفعت نسبة الاتحاد السوفييتى، وارتفعت نسبة إسرائيل - لاشك بالهجرة - أكثر وأكثر .
هذا إذن عن "الثلاثة الكبار" كما يقال - فى اليهودية العالمية . ولكن ثمة بعدها دول تتدرج من حوالى نصف المليون إلى ثلث المليون إلى ربع المليون ، هى على الترتيب بريطانيا نصف ثم الارجنتين وفرنسا ثلث ثم كندا ورومانيا ربع . ثم تلى بعد هذا ٥ دول يزيد عدد اليهود فى كل منها على المائة الف ، هى على الترتيب ، المغرب فالجزائر فالبرازيل فالمجر فجمهورية جنوب أفريقيا، مع ملاحظة ان الهجرة أخيرا من المغرب والجزائر قد هبطت بأعداد اليهود فيهما كثيرا جدا حتى خرجت بهما من هذه المجموعة . من هذا التصنيف الحجمى لايمكن إلا أن نصل الى نتيجة بالغة الأهمية إن لم تكن ثورية حقا . فاذا نحن أضفنا مجموع الثلاثة الكبار لاتضحت لنا حقيقة بالغة الخطورة وهى أن ٩ر٨ مليون يهودى من ١٣ مليونا أو نحو ٦٩ % تحتشد جميعا فى ثلاث من دول العالم وذلك بحسب أرقام الخمسينات أو ٩.٧٨٥.٠٠٠ من ١٣.٤٠٠.٠٠٠ أى بنسبة ٧١ % بحسب أرقام ١٩٦٦ . كذلك اذا نحن اعتبرنا الدول الثلاث عشرة فئة ١٠ + الف لوجدناها تحتكر وحدها ٠ ٠٠ ر ٢٠٧ر١١ يهودى من المجموع العالمى البالغ حينذاك
١٢.٠٣٥.٠٠٠ أو زهاء ٩٣% فما معنى هذا ؟ قد يكون اليهودى عالمى التوزيع ، بمعنى أنه لاتكاد تخلو دولة فى العالم منه ، وقد يكون توزيع اليهودية على طرف النقيض من توزيع الإسلام الجغرافى الذى ينفرد من بين الأديان بمحيط مطلق يكاد يكون متصلا بلا انقطاع ، ولكن ليس صحيحا أن "تحت كل حجر فى العالم يهوديا" إنما الاصح ان نقول أن توزيع اليهود العالمى توزيع رشاش متطاير فى معظمه يتحرل أحيانا إلى تراب رمزي بحت بينما أن ٦٩% أو ٧١% من يهود العالم يتكدسون ككتلة من الأحجارالضخمة" فى ٣ دول ، ٩٣% فى ١٢ دولة . وبينما تتراوح نسب اليهود إلى عدد السكان الكلى فى دول الجاليات الكبرى (ماعدا فلسطين المحتلة) بين ٣% كما فى الولايات المتحدة وبين

١ % تتأرجح فى بقية دول العالم حوالى ار. ، ٢ر٠، ٤ر٠ فى الأعم الأغلب، وكثيرا ماتكون أقرب إلى الصفر .

أما اذا عدنا إلى التوزيعات الاقليمية، فسنجد الصورة أوضح مايكون، ولكن أيضا أشد مايكون ثورية فى أوروبا، فثمة دائرتان أو بالأحرى الآن نواة ضخمة ونوية ثانوية. النواة فى شرق أوروبا (٣ ملايين) الاتحاد السوفييتى بمليونين وربع المليون ثم رومانيا بربع مليون، والمجر بنصف ذلك . ومن الواضح أن هذه النواة تقلص ضامر لنواة القرن الماضى الثقيلة بعد أن خفت فى القلب وقلمت اطرافها فى بولنده وتشيكوسلوفاكيا وشرق ألمانيا والنمسا بفعل الهجرة والحرب وعمليات التصفية النازية. أما النوية (اقل من المليون) ففى بريطانيا وفرنسا أساسا، وهى بهذا قد ورثت نوية الراين القديمة التي تبددت الآن تماما وأصبحت ألمانيا مثل بولنده من اقل دول أوروبا يهودا. وخارج هاتين الدائرتين ينتشر اليهود فى شبه تجانس على نحو ما، ببضعة آلاف أو عشرات الآلاف لا أكثر فى بقية وحدات القارة . وبهذا وذاك جميعا نرى أن توزيع اليهود وكثافتهم تقل سريعا فى أوروبا شمال الألب من الشرق الى الغرب . وعلى العكس من هذا انحدارهم Gradient على الشاطىء الآخر من البحر المتوسط فى شمال أفريقيا ، فهم يقلون عددا ونسبة كلما اتجهنا من الغرب إلى الشرق ، من المغرب إلى الجزائر إلى تونس إلى مصر . ونطاق يهود أفريقيا العربية ، الذي كان يزن قبل الخروج الأخير نحو نصف المليون ، يكاد يكون المجال اليهودى الوحيد فى القارة باستثناء الطرف الجنوبى الأقصى فى جمهورية جنوب أفريقيا حيث جذبهم الاستعمار السكنى (١١٠ آلاف) . وكلا المجالين –
سيلاحظ - خارج مدارى بوضوح . أما بين المدارين فقليلة جدا هى الوحدات التي تعرف اليهود قدامى أو جددا ، وقليلة هى جدا أعداد اليهود فيها على أية حال - كاثيوبيا وبعض وحدات الاستعمار الأوروبي السابق فى مثلث القارة الجنوبى .

أما فى آسيا العربية - باستثناء فلسطين المحتلة منذ قيام إسرائيل - فقد أصبح اليهود مجرد بقايا لا وزن لها في أي مكان ، بضعة آلاف أو مئات فى بعض وحدات منها وليس كلها . أما قبل ذلك فكانت أهم تجمعاتهم فى العراق (١٠٠الف) واليمن (٧٠ الفا) بينما خلت وتخلو منهم بقية الجزيرة العربية. واليوم تأتى إيران كأكبر جالية يهودية فى آسيا خارج العالم العربى . (٨٠ الفا) تليها الهند (٢٥ الفا) - أما يهود تركيا فمركزون عمليا فى اسطنبول على البر الأوروبى لا

الأسيوى. وربما اتت بعد ذلك جمهوريات آسيا الوسطى السوفيتية بجالياتها اليهودية القديمة ، وجمهورية بيروبيدجان فى الشرق الأقصى السوفيتى بمستعمرتها الجديدة وعدا هذا فبقية آسيا "خالية" من اليهود إلا من اعداد رمزية بحتة هنا وهناك .
أما فى العالم الجديد فإن اليهود يتركزون أساسا فى الشمال الشرقى ، الربع الغنى ، ثم تلى نوية ثانوية فى الغرب الأوسط وولايات الهادى . أما فى الجنوب عامة وولايات الجبال فيقلون كثيرا.
وبالمثل فى أمريكا اللاتينية يتركز اليهود على السواحل الشرقية أولا ، وفى النطاق دون المدارى أو خارج المدارى ثانيا، كما فى البرازيل والأرجنتين. ومن هذا النمط، واذا تذكرنا معه انتقال أحد مركزى ثقل اليهود فى أوروبا من وسطها إلى غربها، يمكننا بسهولة ان نتصور الكتلة الكبرى من اليهودية العالمية تتجاذب كما لو كانت مغناطيسسا نحو سواحل المحيط الأطلسى شرقية وغربية .
فاذا ما أضفنا الى ذلك نمط التوزيع فى أمريكا الجنوبية ثم تركز يهود شمال" أفريقيا تقليديا فى المغرب ، لجاز لنا أن نقرر أن الأغلبية العظمى من يهود العالم تحف بشواطئ ذلك المحيط ، بعد أن كانت حتى القرن الماضي تتركز أساسا فى القلب القارى للعالم القديم

طفيليات المدن

تلك بصورة عامة الخطوط العريضة فى توزيع اليهود على سطح الأرض . غير أننا ننسى نصف الحقيقة اذا نحن اغفلنا خاصية نادرة وشديدة الالحاح والتواتر فى التوطن اليهودى ، وأعنى بها سكنى المدن . فاليهود بالدرجة الأولى سكان مدن ، وسكان مدن كبرى بالدقة، ثم هن إلى ذلك سكان عواصم بالتفضيل والامتياز. وأنت حين تتكلم عن يهود
دولة ما فأنت تتكلم فى الحقيقة عن يهود العاصمة ومدينة أو اثنتين إلى جوارها. وهذه حقيقة طاغية وأبدية طوال تاريخ اليهود قديما كان أو حديثا ولاتتبلور كما تتبلور فى وقتنا هذا. والأمثلة تغنى عن الحصر، ولعل أوضحها فى الذهن المثال الأمريكي يهود نيويورك = ٣.٥٦٠.٠٠٠ بينما يهود إسرائيل = ٢.٣٦٤.٠٠٠ يهود نيويوكر في ٥ ضواحي أساسا : مانهاتن ، بروكلين ، برونكس ، كوينز ، ريتشموند ، نصف مدرسي نيويورك يهود لذا المدارس تغلق السبت .
فمدينة نيويورك الكبرى تضم وحدها أكثر من مليونين ونصف مليون يهودى ، أي أكثر من نصف يهود الولايات المتحدة وما يكاد يقارب كل يهود الاتحاد السوفيتى. وهى بذلك اكبر "ارساب" يهودى في أي نقطة منفردة فى العالم : إنها تل ابيب الكبرى ، بل أنها هى إسرائيل الكبرى .
وبقية يهود الولايات موزعة بين المدن الكبرى بصرامة. وتدل الدراسات السكانية فى الولايات المتحدةعلى أن عدد اليهود فى المدن يتناسب تناسبا طرديا مع أحجامها، فهم اقوى ما يكون فى نيويورك تليها على الأرجح شيكاغو، بينما لا وزن لهم مثلا فى مدينة بوسطن .
هل تريد مزيدا من الأمثلة ؟ فى كندا حيث كل اليهود ٢٣٣ الفا نجد ٧٧ الفا فى تورونتو، ٦٥ الفا فى مونتريول. فى باريس ١٧٥ألفا أي ٥٠% من كل يهود فرنسا البالغين ٣٥٠ الفا. فى لندن ٢٨٠ الفا من أصل مجموع ٤٥٠ ألفا .
مدينة تونس ٥٥ ألفا بينما أن دولة تونس ٨٠ ألفا اسطنبول ٥٠ الفا فى حين أن كل يهود تركيا ٦٠ الفا. فى جمهورية جنوب أفريقيا ١١٠ آلاف ٥٠ ألفا منهم في جوهانسبرج وحدها ، وفى أستراليا يتركز فى ملبورن ٢٥ الفا وفى سيدنى ٢٢ الفا من مجموع كلى قدره نحو ٥٧ الفا .
وهكذا وهكذا .

حتى فى فلسطين المحتلة تحول المغتصبون الدخلاء المقتلعون إلى سكان مدن : فمنذ بضع سنين كان ٩ ر ٧٥ من سكان إسرائيل يتكدسون فى المدن، وكانت بذلك ثالثة دول العالم بعد اسكتلندا ثم انجلترا وويلز فى درجة المدنية والمؤكد أن هذه النسبة قد زادت منذ ذلك الوقت ، ومن المؤكد كذلك ان العالم لا يعرف دولة قزمية بهذه الدرجة الصارخة المنحرفة من المدنية. ولكنها ببساطة "حثالة مدن" العالم انصبت واستقطبت فى دولة .

والمعنى المباشر لهذا كله ان اليهود ، وقد راينا ان توزيعهم الفعلى ليس عالميا بالصورة المطلقة المرسومة فى أذهاننا ، أبعد شيء عن التوزيع "الغطائى" الشامل وإنما هم أدنى إلى التوزيع النقطى البحت. الصورة المجازية ليست نهر مجرة مرصعا عالميا بمستعمرات اليهود ، ولكنها يمكن أن تكون منثورا من النوى والنويات السديمية هنا وهناك .على أن هذا إن حدد مجالتهم الجغرافية، فانه عادة ما يجعل منهم اقليات مهمة أو خطرة فى بيئاتهم المدنية تلك بل قد يؤلفون الأغلبية فيها أحيانا كما عرفت بالفعل بعض مدن بولندا فى القرن الماضي ، مما يفسر سيطرتهم المادية والسياسية من ناحية: ويضخم شعورهم بالذات من ناحية أخرى ، وبالتالى يفاقم من شدة التعصب ضدهم والاضطهاد من ناحية ثالثة.. إلام نرد هذه الظاهرة المميزة. إلى غريزة "طفيلية" استغلالية فى طريقة الحياة اليهودية ، أم إلى قوى ضغط خارجية ؟ يرى البعض أن قوانين العصور الوسطى حرمت على اليهود امتلاك الأرض وفرضت عليهم حياة "الجيتو" .

ولكن البعض الأخر يرى أن اليهودى مرتبط بالمال والتجارة والسمسرة والربا أبدا، وأنه يكره العمل اليدوى الشاق أو فى الخلاء، يكره بذل الجهد الجسمانى بعامة ، ويفضل ان يعيش بعقله لا بعضله Brain not Brawn من هنا - وليس من هناك يبتعد عن الزراعة أولا وعن الصناعة إلى حد بعيد ، ولذا لا يكثر فى المناطق الزراعية أو الصناعية ويتقاطر بعلى العكس فى المدن حيث الأعمال الحرة والمعاملات التجارية والنشاطات المالية والمصرفية .. الخ .

والواقع أنه ليس بالعالم كله مجتمع يهودى زراعى واحد يستحق الذكر، وباستثناء بعض خلايا معزولة فى الروسيا القيصرية وبولندا القديمة لا نعرف فى التاريخ الحديث أن اليهودى ارتبط بالزراعة. وبالمثل فى التعدين والصناعة : فمن الغريب ان الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة على شدة تباين وتناقض مذاهبهما ـ لا يعرفان يهوديا واحدا من عمال المناجم بالذات ! وعلى العكس من ذلك كله التجارة والمهن الحرة ، فقديما كانت كلمة اليهودى مرادفة لكلمة التاجر ،

وحديثا يحتشد اليهود فى الوظائف الحرة كالطب والمحاماة والتجارة والمال والصحافة حتى لنجد ، على سبيل المثال ، أن نصف مجموع الأطباء والمحامين فى ولاية نيويورك ودورها المحورى فى الاقتصاد الأمريكى تلخصه ببلاغة الكناية الساخرة "بالولاية الامبراطورية Empire State إشارة إلى ناطحة السحاب المشهورة !- نجد نصف هذا المجموع من اليهود .

ومن الواضح من هذا كله أن طراز حياة اليهودى هر الأعمال غير المنتجة والوظائف الطفيلية .

ومن المحقق ان هذا سبب أصيل وعميق فى كراهية الأمم لهم ، ولعله - أكثر من التعصب الدينى البحت ربما المصدر الأول لاضطهادهم ومقتهم. واليهودى بهذا كله قد أصبح مركبا اقتصاديا اجتماعيا شديد الوضوح حتى ليضرب به المثل وحتى اتخذ علما ونموذجا على حالات مشابهة: كذاك مثلا يطلق على الجاليات الصينية التاجرة خارج الصين "يهود جنوب شرق آسيا" ، وكذاك يوصف الهنود فى مدن ساحل أفريقيا الشرقية "بيهود شرق أفريقيا" ! ومهما يكن من أمر ، فإن الحقيقة تظل قائمة من أن اليهود سكان مدن أساسا ، أكاد اقول "طفيليات مدن" أساسا، وتظل لها نتائجها الاجتماعية والجسمية التي ستنعكس كما سنرى على مشكلتهم الآنثروبولوجية .

مجتمع الجيتو

لقد رأينا حتى الآن أن توزيع اليهود توزيع كوزموبوليتانى أولا، ومتروبوليتانى ثانيا، ولكن يبقى أخيرا أن نضيق بؤرة عدستنا أكثر وأكثر لنرى الخلية النهائية والأساسية فى توزيع اليهود.. أنها الجيتو حى اليهود أو معزلهم فى المدينة ! فطوال عصور التاريخ ، وفى كل البلاد والأقاليم، ارتبط اليهود كقاعدة بلا استثناء بالعزلة السكنية فى حى المدينة ، الجيتو كما يقال له فى كثير من بلاد أوربا وأمريكا، أو حارة اليهود: فى ألمانيا وكما نقول نحن هى مصر، وهو اليوديريا فى أسبانيا الوسيطة، Juderia أو هو

المله Mellah كما يقال فى مدن المغرب العربى، أو القاع قاع اليهود كما فى مدن اليمن .

وكثيرا ماكانت هذه الوحدة الخلوية اليهودية تغلف بحائط خاص داخل المدينة، وأحيانا كان الحى برمته يقام خاج اسوار المدينة الأم ذاتها أمعانا فى العزل . وفى الغالب الأعم يؤلف حى اليهود قطاعا من الأحياء الفقيرة المنحطة من المدينة ، ويكفى فى هذا الصدد أن نذكر كمجرد مثال حى ستينى وهو ايتشابل Stepney Whitcchapel فى الايست اند نطاق الفقر الشهير فى شرق لندن . ومع ذلك فقد كان اغنياء اليهود يتعدون هذا الحصار ليعيشوا فى الأحياء الراقية غير اليهودية ، كما أن تطور الحياة الاجتماعية يقلل الآن كثيرا من صرامة عزلة الجيتو .

ومع ذلك وعلى الفور نفهم ان العزل السكنى Residential Segregation هو قانون اليهودى فى المدينة. وكثيرا ما يرتد هذا العزل إلى قوانين الدول والشعوب التي يعيش اليهود بين ظهرانيها ، يفرضونه بالقوة على اليهود تباعدا عنهم واستعلاء عليهم كفئة من المنبوذين أو البارياه سننشا كما يعبر ماكس فيبر، وكذك احكاما للرقابة عليهم

وحصرا لأخطارهم. ولكن كثيرا ايضا ما يرجع هذا الى صنع اليهود أنفسهم، سعيا منهم كأقلية مسحوقة إلى التركز والاحتشاد فى نقطة واحدة ضمانا للحماية فى حظيرة واحدة. لقد بدأ اليهود رحلا فى عصر التوراة، وظلوا رحلا فى عالم الشتات، وككل قطعان الرحل أبوا إلا أن يعيشوا فى حظائر مسورة داخل مدن الشتات ..

الأصل الجنسى لليـهود

حتى الآن لم نعرض الا لتاريخ اليهود عبر الزمان ولتوزيعهم فى المكان ، دون ان نتعرض للجانب الآنثروبولوجى البحت أصلا وجنسا. وقد آن لنا أن نسائل انفسنا : من هم اليهود وأين يقعون فى العائلة البشرية ؟ ما العلاقة بين يهود التوراة ويهود اليوم، والى أي مدى ينتسب يهود القرن العشرين بعد الميلاد إلى بنى إسرائيل القرن العشرين قبل الميلاد ؟ وثمة علامات استفهام أخرى تنبع بالضرورة من تلك : هل ثمة من نقاوة جنسية يمتاز بها اليهود ؟ ما مدى الصحة فى القول بأنهم والعرب "أبناء عمومة" ؟

على هذه الأسئلة يتوقف كثير من المزاعم والادعاءات السياسية، وعلى إجاباتها يتوقف الرد عليها وتفنيدها .

والواقع أننا ينبغى أن نلتفت بوعى إلى أن هناك علاقة حتمية بين الدراسة الآنثروبولوجية الصرفة وبين الجانب السياسى كما يتمثل فى الأطماع السياسية، كما ينبغى أن ندرك أن الصهيونية السياسية تسخر الأبحاث الآنثروبولوجية وترتب نتائجها مسبقا بحيث تخدم دعاواهم الاستعمارية فى فلسطين ، وصميم القضية انهم، إذ يبحثون عن مبرر من الجنس للعودة إلى "أرض الميعاد" يشرع اغتصابهم لفلسطيننا العربية، يركزون بؤرتهم على "النقاوة الجنسية" لليهود ، بمعنى أنهم بعد أن يخرجوا ببنى إسرائيل من فلسطين

الى الشتات يلحون فى أنهم ظلوا نقاة بمنأى عن الاختلاط الدموى مع الشعوب التي انتشروا بينها (الجوبيم كما يسميهم اليهود، أو الجنتيل Genlillcs كما يسمون هم أنفسهم ، أو «الأمم» كما نقول نحن العرب) ، وأن يهود اليوم أينما كانوا هم بذلك النسل المباشر لبنى إسرائيل التوراة ، ومن ثم فهم فى آن واحد مجموعة جنسية واحدة، وقومية تاريخية واحدة، مثلما هم طائفة دينية واحدة ومن ذاك جميعا يخلصون، لا إلى تدعيم اسطورة "الشعب المختار الشعب النقى الخالص فحسب ، وانما كذلك وفى الدرجة الأولى الى تدعيم حق العودة المزعوم واغتصاب فلسطين بهذا تصبح قضية النقارة الجنسية قضية محورية فى المناقشة بالضرورة. والحقيقة أن فكرة النقاوة هذه منتشرة وشائعة إلى حد غير عادى، لا فى التقاليد الدارجة عند رجل الشارع الأوروبي فحسب

، ولكن حتى بين بعض من علماء الأجناس ايضا - لاشك لاعتمادهم على كتابات اليهود أنفسهم عن أنفسهم ، وهى الكتابات التي تبدا من فكرة قبلية مسبقة موجهة إلى أهداف بعيدة غير موضوعية. ولكن هناك - لحسن حظ العلم - من وقف طويلا عند المشكلة باستقلال وموضوعيه ، وأثبت أن دعوة النقاوة أبعد شىء عن الحقيقة والواقع .

وبهذا نكون ازاء مدرستين أو اتجاهين : اتجاه يرى اليهود متميزين مختلفين فى صفاتهم الجنسية عن السكان المحيطين مهما وأنى كانوا ، وبالتالى يؤلفون عبر العالم وحدة جنسية أو نمطا اثنولوجيا متفردا بارز الوضوح. واتجاه أخر يراهم صورة مقربة من السكان المحيطين فى كل مكان وانعكاسا لتركيبهم وتكوينهم الجنسى ، ومن ثم لا يؤلفون الا وحدة دينية لا جنسية أو جينية .

وبين الآنثربولوجيين، يمكن أن نتخذ كون Coon رمزا بدرجة أو بأخرى للاتجاه الأول، بينما يقف ربلى Ripley علما على الاتجاه الثانى ونحن هنا سندير مناقشتنا بالفعل حول هذه الفكرة الفاشية فكرة النقاوة ، فنبدأ أولا بإعادة تركيب الصورة والأصل الجنسى ليهود التوراة فى فلسطين كنمط اثنولوجى محدد، ثم نتتبع الصفات والملامح التشريحية والجسمية لليهود فى المهجر والشتات لنرى إلى أي حد تتفق مع ذلك النمط الأبوى الأصلى القديم وفى هذا المجال سنحاول أن نعزل أولا تلك الصفات والملامح التي تتكيف بالبيئة طبيعية أو اجتماعية بحسبانها عناصر مكتسبة لا تكشف أصلا أو عرقا ، فلا يبقى بعدها فى البؤرة الا الصفات الوراثية الدفينة الحقة التي يمكن لها وحدها أن تقرر وتحدد مسافة الخلف أو القرب بين يهود التوراة ويهود اليوم، ومن ثم مدى النقاوة فالاستمرارية الجنسية بينهما . وبذلك كله نستطيع أن نحدد موقفنا من النظريتين الأساسيتين نظرية النقاوة ونظرية الاختلاط .

الاجماع بين الآنثروبولوجيين كامل على أن يهود عصر التوراة فى فلسطين هم مجموعة سامية من سلالة البحر المتوسط بصفاتها التي نعرف ونرى اليوم من سمرة فى الشعر وتوسط فى القامة وطول إلى توسط فى الرأس وقد اختلط يهود بنى إسرائيل فى فلسطين مع الجماعات الأخرى السابقة لها واللاحقة بها من كنعانيين وعموريين وفلسطينيين، وتمثلوا كثيرا من دمائهم وابتلعوا أعدادا منهم حتى أصبحوا هم أنفسهم مجموعة مركبة عبرية بعامة، ولكن تلك الجماعات نفسها لم تكن لتخرج عن نفس السلالة الجنسية القاعدية المتوسطية، ومن ثم لم يغير الاختلاط معها النمط

الأساسى لليهود فى قليل أو كثير . والأدلة المباشرة لدينا محدودة ولكنها مقنعة . فثمة قليل من الجماجم عثر عليها فى فلسطين وخارجها تعود إلى عصر سليمان وبعده ، وتشير الى سلالة البحر المتوسط مع قلة نادرة من حالات عرض الرأس . وأهم من ذلك رسوم وتماثيل قدماء المصريين والبابليين التي تحدد كل الجماعات والعناصر التي ذكرنا ومن بينها يهود فلسطين الأوائل التي لا تختلف عن ملامح العموريين والساميين. فبينما يبدو الفلسطينيون كالأوروبيين

من سلالة البحر المتوسط ببشرة فاتحة اللون ، يبدو العموريون طوال الوجوه، ببشرة مصفرة واونوف محدبة، ويبدو الساميون الذين يشملون لاشك الكنعانيين بجباه مائلة وأنوف مبالغ فيها كأنوف العرب والعراقيين اليوم. وعلى هذا يمكن القول ان يهود فلسطين أيام داود كانوا سمرا من سلالة البحر المتوسط، على عدة أنماط ، واحد منها على الأقل طويل الوجه اقنى الأنف . وإذا أضفنا دلالة التوراة فيمكن أن نردف قصر القامة ، ففى التوراة يصف سفر الاعداد الإسرائيليين بالمقارنة إلى العموريين أبناء أناك بأنهم

"as grasshoppers in their own sight" يعنينا هنا أن نقف قليلا عند عنصرين بعينهما . وهم العموريون والحيثيون. فثمة نظرية قديمة كانت ترى فى العموريين (الشعب الأحمر) عرقا "نورديا" أشقر، وكانت ترد ما فى يهود اليوم من شقرة اليهم. ويبدو أن أصل اصل هذه النظرية يرقى إلى مؤرخ الشرق القديم سايس Sayee وثمة

نظرية قديمة كذلك كانت تعد الحيثيين من الأرمينيين Armenoids عراض الرءوس، وإليهم كانت ترجع عامل عرض الرأس وتحدب الأنف فى يهود اليوم، ولعل أول من روج لهذه النظرية هو ينسن .Jensen. وهاتان النظريتان: اللتان كان هادون من أنصارهما، يمكن الترتيب على أساسهما للزعم بأن اليهود يبدأون فى موطنهم الأول وهم مختلطون

ويمثلون أكثر من نوع أو نمط جنسي محليا وبالتالى يمكن على أساسهما. تفسير اختلافات الصفات الجنسية ليهود اليوم داخل حدود نظرية النقاوة الجنسية. غير أن كون يثبت خطأ النظريتين نهائيا فلم يكن العموريون شقرا أو حمرا بل صفرا، ولا كان الحثيون ارمينيين بصورة ما، بل ليس هناك دليل تاريخى على اختلاط مهم لليهود بهم لنحاول الآن أن نبحث عن يهود معاصرين يمكن

اعتبارهم بغير شكوك استمرارا نقيا لبنى إسرائيل عصر التوراة حتى نقارن بين الطرفين .

ليس بالعالم اليوم مجتمع يهودى واحد أفلت من الاختلاط البيولوجى مع غيره من المجتمعات اليهودية منذ أولى مراحل نشأتها . ولهذا السبب لسنا نستطيع أن نعر أن أي جماعة من اليهود الشرقيين أو غير الشرقيي تمثل تمثيلا صادقا يهود فلسطين أيام المسيح. ولكن لعل السامريين هم المجموعة الوحيدة من اليهود التي يتفق الجميع على أنها ظلت فى فلسطين كطوال التاريخ حتى يومنا هذا فى عزلة كاملة وتزاوج داخلى ضيق وفى نقاوة لاشك فيها ، وأنهم أكثر من أي مجموعة أخرى يمثلون العرق اليهودى الفلسطينى الأصلى القديم . هم فى قرية من قرى نابلس يقيمون ، وعددهم اليوم لا يعدو المائة أو المائتين ، أي أنهم يتجهون من قديم نحو الآنقراض المحقق. هم متوسطو
الرءوس الوجه طويل ضيق ، ولكن القامة أطول من المألوف المعروف عن اليهود ، كما يبدون نسبة من اللون الفاتح أكبر من المعهود فى سلالة البحر المتوسط ، ولو أن السمرة تظل سائدة. وبالنسبة ليهود فلسطين بعامة فى أوائل هذا القرن - أي قبل هجرة الصهيونية - فالقامة قصيرة ، والرأس متوسط والوجه ضيق كثيرا، والأنف الأقني يسود
بين نحو ٨٠ من العينة المدروسة. أما الشقرة فلا وجود لها

صفات اليـهود الجسمية

لعل الصورة الجسمية لليهودى القديم ، يهودى فلسطين قبل المسيح ، قد اتضحت معالمها العامة لنا الآن. ونستطيع إذن أن ننطلق فى جولتنا حول العالم لنقارن اليها صفات يهود اليوم . ولنبدأ ببعض الصفات والملامح الأكثر شيوعا فى التصور الدارج عن اليهود ، ولكن الأقل مغزى فى الدلالة الآنثروبولوجية، لنبدأ بالقامة وما يتصل بها من محيط الصدر، ثم بملامح الوجه عامة والأنف خاصة .

من الشائع جدا عن اليهودى أنه قصير القامة ، إن لم يكن حقا كالقزم أحيانا. وهذا صحيح علميا - أو بالدقة كان - إلى حد كبير. فالدراسات المترية تظهره فى أغلب الحالات فى كل الدنيا اقصر من غير اليهود بضع بوصات تزيد أو تقل فقط بحسب طول القامة السائد حوله ، وفى المتوسط لا تتعدى تلك القامة عند اليهودى الناضج قامة صبى فى السادسة عشرة من الجنتيل الأمريكى. وحيث ترتفع نسبة اليهود عدديا - كما كانت الحال فى بولنده فى" القرن الماضي - يخفضون بوجودهم من مستوى أو متوسط القامة العام بنسبة وجودهم وبنسبة طول الجنتيل . ولا تكاد تعرف الآنثروبولوجيا استثناء لهذه القاعدة الا حالات نادرة: ففى يهود التركستان تتساوى القامة مع السكان المحيطين التاجيك ، وفى أوديسا وريجا وجد اليهود أطول من المسيحيين ، وفى تونس وجدوا أطول من العرب ، وقد رأينا منذ قليل أن السامريين ليسوا أطول من جيرانهم الفلسطينيين فحسب ولكنهم يعدون طوال القامة على أي مستوى .

هل يمكن أن يعد قصر القامة اذن صفة جنسية أصيلة من المركب اليهودى ؟ كلا على الأرجح ، رغم ذلك ورغم إشارة التوراة إلى الظاهرة . فمن ناحية لا يمكن أن نتكلم عن وحدة النمط اليهودى من حيث القامة، لأنه برغم سيادة القصر فإن هناك تفاوتا محسوسا بين مجتمعات اليهود المختلفة، وكذلك يتراوح اشكناز أوروبا فيما بينهم كثيرا. ومن ناحية أخرى فالثابت الآن علميا بلا مراء أن القامة صفة جسمية مرنة مطاطة تتكيف بالبيئة الطبيعية والاجتماعية، بالصحة والتغذية ، وأنها صفة مكتسبة وظاهرة اجتماعية مثلما هى ، أو أكثر مما هى ،، وراثية جامدة .

وأغلب الظن أن قصر قامة اليهود هو وليد الجيتو وحياة التوتر والخوف من الاضطهاد . كما أن من المعتقد أن تفشى عادة الزواج المبكر جدا بين اليهود حتى وقت قريب كانت مسئولة عن نوع من الآنحطاط الجسمى انعكس على القامة . أما حين وحيث تزول هذه الظروف البيئية فإن قامة اليهودى تنطلق لتقترب من قامة الجنتيل كما فى حى الوست
اند الراقى بلندن وكما حدث حديثا فى الولايات المتحدة . ومن قبل كان اليهود أطول قامة فى أوكرانيا الخصبة منهم فى ليتوانيا الفقيرة المجدبة .
عدا القامة الضئيلة، يوصف اليهودى عادة بضيق الصدر. والأدلة العلمية تؤكد مرة أخرى الفكرة الدارجة فتجد محيط الصدر أقل كثيرا من المتوسط العام عند الجنتيل، وسعة الرئتين ضئيلة والقفص الصدرى مسحوبا مسطحا .
والقياسات من مختلف أجزاء العالم لا تختلف فى هذا الصدد. ولكن مرة أخرى نعود فنجد أن هذه نتيجة طبيعية لنمط الحياة وللبيئة إلى جانب الحرفة. فالحرف الداخلية التي فرضها الجيتو على اليهود ، لاسيما الحرف اليهودية التقليدية منها كالخياطة والصياغة وصناعة الأحذية.. الخ ، ترتبط وثيقا بتلك الظاهرة. ولذا فانها - كالقامة - لا يمكن أن تكون صفة جنسية أصيلة ولا دليلا قاطعا له وزنه فى تحديد الأصول الوراثية لليهود . وفى الولايات المتحدة حيث تحسنت بيئة اليهود جدا تختفى الظاهرة تماما .
وننتقل بعد هذا إلى جانب يبدو على السطح أكثر خطورة ومغزى، ولعله أكثر ما يقال عن اليهود شيوعا عند الرجل العادى ، وأعنى به ملامح الوجه أولا والنظرة العامة أو "السحنة" ثانيا.
فالشائع الدارج أن اليهودى يتصف تقليديا بالسمرة (والمقصود هنا سمرة الشعر والعين لا البشرة، أي برونت)، ثم بالأنف الأقني الضخم، والعيون المنتفخة، والشفاة الممتلئة . أما عن النظرة العامة فالمقول الشائع والمتداول هو أن هناك "نظرة يهودية" أو "سحنة يهودية" بطريقة ما تميز اليهودى لأول وهلة ويعرفها هو جيدا عن نفسه كما يعرفها الجنتيل . فما مدى صحة هذه آلأفكار الدارجة، وما قيمتها فى تحديد نقاوة وأصل اليهود ؟
أما أن اليهودى أسمر الشعر والعين، فحقيقة تؤكدها الدراسة العلمية، ولكن لا كقاعدة عامة مطلقة وإنما كاتجاه سائد. وفى أجزاء كثيرة من أوروبا وجد أن نسبة السمر بين اليهود تصل أحيانا إلى ثلثى العينة المدروسة ، وأن هذه النسبة تعادل ضعفى مثيلتها بين الجنتيل .

(ونسبة السمرة دائما أعلى - بالمناسبة - بين اليهوديات منها بين اليهود) . ومع ذلك ففى مناطق معينة من بولندا وجد أن نحوا من ثلث إلى خمسى اليهود ذوو شعر فاتح. كذلك فمن الثابت أن هناك عنصرا أوضح من الشقرة بين اليهود الشرقيين، يجنح بهم إلى اللون الصهب Rufous وحتى بين السفارديم هناك كثير من الشقر. وتبدو الشقرة واضحة كذلك فى يهود الالزاس واللورين ، وأوضح فى يهود انجلترا .

نصل من هذا إلى أن سيادة السمرة بين اليهود ليست إلا نصف الحقيقة، وربما كان أهم منها أنه ليس هناك وحدة لونية بين يهود العالم من ناحية ، ناحية أخرى أن تفاوت لون الشعر والبشرة بينهم ما بين شقرة وسمرة إنما هو ظاهرة لا يمكن أن تفصل عن لون السكان المحيطين بدرجة أو بأخرى . فمن حيث الشعر والعين ، لا نجد فى فلسطين عامة شقرة ما (قبل إسرائيل) بينما يبدى قلة من السامريين بعض شقرة خفيفة ، وفى العراق ودائرة القوقاز تسود السمرة ، هذا بينما فى شمال أفريقيا تحدث الشقرة بنسبة ٥ %

ترتفع إلى نسبة السدس بين سفارديم سالونيك واسطنبول ، وفى القرم ٧٥ % سمر من البرونت والباقى من لون فاتح ، ثم بين اشكناز أوروبا تهبط نسبة السمر إلى ٥٥ % وتتحدد نسبة الشقر بنحو ١٠ % والباقى لون فاتح ، حتى إذا ما وصلنا إلى يهود ليتوانيا كان ٥٥ % من لون فاتح . فهذه إذن سلسلة تصاعدية يبدى لون اليهود فيها معامل

ارتباط وثيق مع لون السكان المحيطين السائد .

ويرى كون ان اشكناز أوروبا قد حققوا لأنفسهم توازنا ثابتا بطريقة ما فى لون الشعر والعين : ففى البلاد التي يغلب على الجنتيل فيها الشقرة أو الشقرة على السمرة نجد اليهود اميل إلى السمرة نسبيا، وفى البلاد التي تسود السمرة فيها بين الجنتيل مثل رومانيا فإن اليهود تميل إلى أن تكون أكثر شقرة. وسواء اتفق هذا الرأي مع معامل الارتباط الواضح فى السلسلة السابقة أو تعارض معه ، فالشىء المؤكد أن اليهود ليسوا متجانسين لونا أما عن لون البشرة نفسها، فالفروق بين اليهود ليست أقل حدة ، وليس ثمة نمط موحد البتة . فهم بين سفارديم البحر المتوسط والشرقيين بيض مشربون بسمرة خفيفة عامة . وهم كذلك فى التركستان حيث يشبهون فى لونهم لون جيرانهم تاجيك الجبال مثلما يشبهونهم فى غزارة شعر الجسم. أما فى اليمن فهم إن بدوا أفتح قليلا من اليمنيين فما ذاك إلا لحياتهم فى الظل بعيدا عن العمل فى الخلاء. اما فى أوروبا فلا يختلف

الاشكناز عن الأوروبيين فى لون البشرة . وعلى النقيض من هؤلاء اليهود البيض ، فثمة اليهود السود" الذين يقعون خارج التقسيم الثلاثى لليهود إلى أشكناز وسفارديم وشرقيين .
من هزلاء الفلاشة Falasha فى شمال الحبشة، وهم إلى حد كبير متزنجون Negroid ويتكلمون لغة الأجاو الكوشية القديمة. ومنهم كذلك فى أفريقيا الدجاتون Daggatuns فى جنوب الصحراء الكبرى. أما فى آسيا فهناك اليهود السود من التاميل فى كوتشين بجنوب غربى الهند، وهم يسمون هناك هكذا تمييزا لهم عن جيرانهم "اليهود البيض" الذين ينحدرون من أصل فلسطينى منذ أيام الشتات الأولى. وربما جاز لنا أن نضيف إلى نماذج اليهود السود مجموعات فى أمريكا اللاتينية من الزنوج أو الخلاسيين الذين اعتنقوا اليهودية أو اختلطوا بيهود مهاجرين .
ننتقل الآن إلى الأنف . فأما الأنف الأقني المحدب الذى الصق باليهود واشاعه رسام الكاريكاير حتى صار علما: "الأنف اليهودى" - فليس فى الحقيقة صفة يهودية. فالملاحظات الآنثروبولوجية تتثبت أولا أنه ليس منتشرا بين اليهود بدرجة خاصة أو غير عادية ، وأنه ثانيا منتشر بين غير اليهود بحرية وبلا حدود . فبين يهود بولندا لم تزد نسبة حدوثه على ٩ % من العينات ، وهى نفس نسبة البولنديين ، ولو أن النسبة نرتفع فى غاليسيا إلى ٣٠ % . وفى مدينة نيويورك لم يعثر على الأنف "اليهودى" الا بين ١٥ % من ذكور اليهود الراشدين . أما الشكل الأكثر حدوثا بين اليهود فهو الأنف المستقيم كما فى يهود شمال أفريقيا ويهود العالم العربى والسفارديم . مثلا بين يهود اليمن ٦٠ % انوف مستقيمة ، بل وهناك نسبة من الأنف المقعر . وبين اشكناز اوربا تسجل القياسات سيادة الأنف المستقيم فى حين يقل الأنف المحدب عن النصف دائما. بل أن الأنف المقعر ليكثر بين يهود الروسيا حيث يكثر الشكل بين السلاف الشماليين عامة . فهناك ترجح نسبة حدوث الأنف المقعر نسبة الأنف المحدب كثيرا، بينما فى ليتوانيا تصل نسبة الأنف المقعر إلى ٥٠ % ويختفى الأنف المحدب كلية . الناحية الأخرى ، فالأنف الأقني المحدب شائع بوفرة بين غير اليهود : وجد بين ثلثى العينة فى جنوب شرق بولندا، وهو منتشر كثيرا بين العرب وآلافغانيين وكثير من الأوروبيين.. الخ .
ونحن اقرب إلى الصحة فيما يرى كون - حيث نصف الأنف الأقني "بالأنف السامى" منا إذ نصفه "بالأنف اليهودى" ، ولو أن هادون يرى عكس هذا تماما حيث يقول أن تسمية الأنف اليهودى بالسامى خطأ شائع وأنه فى الحقيقة من أصل ارمينى .

وأيا ما كان ، فالذى يميز الأنف اليهودى حقا إنما هو تشكل أو تشوه خاص يشمل انخفاض أو تدلى طرف الأنف مع ارتفاع جناحى المنخرين حتى ليبدوان معلقين على الوجنتين ، مما يؤدى بالتالى إلى ظهور قصبة الأنف مرئية بوضوح . والظاهرة ككل يمكن أن تسمى "بالمنخره Nostrility" وتقرب بروفيل الأنف كثيرا من رقم ٦ آلافرنجى مد ذيله. وهذا قد يعطى شعورا بتحدب الأنف فى حين أنه مستقيم فى الواقع. ولكن يبقى بعد ذلك كله أن هذا النمط لا يوجد لدى كل اليهود أو حتى أغلبهم. وفى النتيجة فإن من المستحيل
أن نتكلم عن نمط أو شكل يهودى بعينه من الأنف ، ولا يعرف اليهود وحدة انفية أكثر مما يعرفون الوحدة اللونية .

تبقى العيون. الحاجبان، اللذان يبدوان ثقيلين لسوادهما، أميل عادة إلى أن يقتربا بعضهما من بعض . أما العيون فبينما نجد عيونا شريطية غائرة بين اليهود العرب ، تسود بين
أشكنازيم أوروبا العيون "المائية" الضخمة البارزة والجفون المنتفخة الثقيلة التي - كما يعبر ريلى - تعطى شعورا أما بالحزن أو النظرة الحالمة وأما بالخبث المكتوم.على أن المهم أن ليس هناك عيون خاصة باليهود وبالمثل فإن ما يقال عن امتلاء الشفاه مع بروز الشفة السفلى مدلاة إن لم تكن مقلوبة. حقا، ليس شائعا أو شرطيا بين اليهود .

يبقى الآن ما يقال عن "سحنة يهودية" بعينها يمكن بها التعرف على اليهودى . قد لا يمكن إنكار وجود مثل هذه السحنة أحيانا، ولكن المحقق علميا انها لا توجد عند كل اليهود ، فهى إن كانت موجودة بين بعض الاشكناز فى أوروبا فانها لا تكاد تعرف فى اشكناز أمريكا، كما أنها ليست غير معروفة تماما بين غير اليهود. ومن ثم فهى كثيرا ما تخدع الرائى فى التشخيص فيأخذ غير اليهود على انه يهودى واليهودى على أنه غير يهودى . وإذا كانت هذه النظرة أو المسحة تتركز بطريقة ما حول العينين والأنف والفم ، فإن من الصعب تحديدها وقياسها .

ولكن الأهم من ذلك كله أن سحنة الوجه هذه ليست صفة جسمانية بقدر ماهى تعبير اجتماعى مكتسب من البيئة الاجتماعية، من صنع الجيتو وحياة التشرد والاضطهاد والصراع ضد الاخطار المستمرة حتى لقد اسماها البعض "تعبير الجيتو" . إنها باختصار من فعل الانتخاب الاصطناعى لا الوراثة والبيولوجيا ، تثبتت عن طريق التزاوج الداخلى والانتخاب الجنسى والانتخاب الاجتماعى والمهنى . ومعنى هذا إننا إذا صادفنا هذه المسحة اليهودية فى الوجه فإنما هى مجرد إرث

الاضطهاد الدينى ايا كان الأصل الجنسى والسلالة العرقية ودون ان تعنى أن صاحبه من نسل بنى إسرائيل التوراة بالضرورة .

تلك إذن مجموعة من الصفات الجسمية المنسوبة إلى اليهود أو الملاحظة فيهم ، لا تدل على الأصل العرقى ولا تحسم مشكلة . وهى إن دلت على شيئ فإنما تدل على انعدام أي وحدة بين يهود العالم فى تلك الصفات، إن لم تدل حقا على تأثير بعيد المدى للسكان الذين يعيش بينهم اليهود ، أي على الاختلاط الجنسى وامتزاج الدماء . ولكننا نفضل أن نؤجل هذا الحكم ريثما نستكمل بقية صفات اليهود الجسمية . فنصل الآن إلى الصفات الجنسية التي تعد محور الدراسات الآنثروبولوجية جميعا، ترتبط مباشرة بالوراثة ولا تكاد تتأثر بالبيئة، ويمكن أن تكون مؤشرا وثيقا إلى الأصول الأولى ومقياسا ومحكا للنقاوة أو الخلط . إنها لا شك شكل الرأس .

وكما رأينا فإن يهود بنى إسرائيل فى فلسطين التوراة كانوا ككل الساميين المحيطين طوال الرؤوس أساسا. فإذا ما وجدنا رؤوسا غير ذلك بين يهود اليوم فليس ثمة إلا تفسير واحد وحيد لا سبيل إلى الشك فيه وهو اختلاط الدم بعناصر غريبة. هذا مع التذكرة بأن سيادة طول الرأس نفسها بين أي مجموعة من اليهود لا تنفى عنهم بالضرورة امكانية حدوث اختلاط جنسى ما مع غيرهم من طوال الرؤوس ، لأن تزاوج طوال الرؤوس بطوال الرؤوس لا ينتج الا طوال رؤوس مثلهم.

فكيف إذا رصدنا شكل الرأس عند اليهود

هى مسح عام ؟ من بين المجموعات الرئيسية الثلاث ، الاشكناز والسفارديم والشرقيين ، يقع الاشكناز جميعا بين عراض الرؤوس ، وأحيانا بين عراض الرؤوس جدا. هكذا هم فى كل اوربا والعالم الجديد ابتداء من الفولجا حتى كاليفورنيا ، حيث تصل نسبتهم الرأسية إلى مثل ما للألمان الجنوبيين والفرنسيين الألبيين . بل أهم من هذا أنهم فى ذلك يشبهون السكان المحيطين محليا ويقتربون جدا من شكل ونسبة رأسهم. فليس ثمة فارق مثلا بين اليهود والمسيحيين بالروسيا وبولندا فى شكل الرأس، بينما فى منطقة القوقاز

تتحول رؤوسهم إلى شكل "قمع السكر" الشهير عند الأرمنيين والقفقاز، بل نجده حتى فى يهود التركستان .

على أن كون يلاحظ أن الاشكناز فى أوروبا يقلون فى نسبة عرض الرأس - وإن يكن قليلا جدا درجة أو اثنتين عن السكان المحيطين ، كما أي وجوههم أقل استعراضا أو أكثر استطالة نوعا ما .

ولهذا ينتهى كون إلى أن اليهود قد حققوا أيضا فى مجال شكل الرأس توازنا ثابتا كما فعلوا فى لون الشعر. هذا عن الاشكناز ولقد كانت النظرية الشائعة بعد هذا ان السفارديم على طرف النقيض مباشرة من الاشكنازيم، أي طوال الرؤوس جميعا، ولكن هذه المقابلة تبسيطية أكثر مما ينبغى ، فحقا يغلب طول الرأس بين السفارديم، ولكن منهم جماعات استعرضت رؤوسهم كما فى شمال ايطاليا حول تورينو وغيرها، وربما لحقت بهم جماعات أخرى من سفارديم البلقان. ومع ذلك يمكن بصورة عامة جدا أن نقبل تلك المقابلة العريضة من قبيل التبسيط الميسور .

هذا ويلاحظ أن السفارديم يعيشون جملة بين شعوب طويلة الرأس كالبربر والعرب بحيث لا يمكن للتزاوج أن يغير من شكل رؤوسهم وإنما على العكس يؤكده . غير ان مما يجدر ذكره أن أبعاد مقاييس الرأس المطلقة فى ذاتها أقل بعامة بين هؤلاء اليهود منها بين شعوب الجوبيم المحيطة، واقرب بذلك هكذا يقول كون إلى نمط يهود فلسطين التوراة أو السامرة .

يبقى اليهود الشرقيون. هؤلاء يأتون فى المنزلة بين المنزلتين أو بالأحرى يقعون فى حدود التصنيف فجزء منهم طوال الرؤوس كالسفارديم، وهذا يشمل يهود مصر والشام واليمن والعراق وجنوب إيران. وهنا ايضا يلاحظ ان السكان المحيطين طوال الرؤوس ، إلا أن ابعادهم المطلقة أي حجم الرأس أكبر نوعا بدرجة وبالأخرى من اليهود .

أما الجزء الآخر فهو كالاشكناز استعرضت رؤوسهم كما فى شمال العراق ومنطقة جبال القوقاز وشمال إيران، ثم يهود التركستان الروسية بكل شظاياها، وأخيرا اليهود القرائين فى القرم وليتوانيا . ففى كل هذه الحالات يعيش اليهود فى محيط واسع من عرض الرأس الشديد ، وفيه استعرضت رؤوسهم بشدة حتى لا يختلفون عنه البتة. إلا أن هناك فارقا فى شكل الوجه - لا الرأس - فهو يميل نوعا إلى الاستطالة بينما هو عريض بين السكان المحيطين ، وهو فى هذا يذكر الى حد ما بوجوه يهود فلسطين التوراة ،

والسامرة . ومع ذلك فهو أقل ميلا إلى الاستطالة بين يهود دائرة القوقاز والقرم منه بين يهود دائرة التركستان .

من هذا المسح السريع نصل اذن إلى أن اليهود يقعون من حيث شكل الرأس في مجموعتين: عراض رؤوس وطوال رؤوس . والمجموعة الأخيرة تشمل أغلب السفارديم

ونصف الشرقيين، أما الأولى فتضم النصف. الآخر - الشرقى أو الشمالى - من اليهود الشرقيين بالاضافة إلى كل الاشكناز . ومن الناحية العددية ، ولها هنا مغزى كبير، تزيد مجموعة عراض الرؤوس على ٨٠- ٩٠ % على الاقل من كل يهود العالم ، والاقلية الضئيلة الباقية هى طوال الرؤوس . ومن الناحية الجغرافية ، يتوزع عراض الرؤوس من اليهود فى مناطق سكانها عراض الرؤوس ، ابتداء من وسط أوروبا حتى وسط آسيا، بينما يقيم طوالهم بين أجناس طويلة الرأس ابتداء من المغرب حتى العراق . ومن هذا وذاك يتضح على الفور ان الأغلبية الساحقة من اليهود إنما تحولت إلى عراض الرأس بعملية استعراض Brachycephalisation أو تأثر بالألبية أر الدينارية كما تسمى علميا -Alpinisa lion Dinaricisation وذلك عن طريق .

واحد ووحيد وهو التزاوج والاختلاط الجنسى مع غير اليهود بينما الأقلية التي احتفظت بطول رأسها الأصلى لا يتحتم بالضرورة أن تكون قد افلتت من مثل ذلك الاختلاط ، ولكنه أمر متروك فى هذه الحالة إلى الأدلة التاريخية. وهذا ما ينقلنا الى قضية النقاوة الجنسية والاختلاط، شواهدها وأدلتها ، أبعادها ومغزاها

نقاوة ام اختلاط يهود تأوربوا ام أوروبيون تهودوا؟

حسنا، بأى مغزى يمكن ان نخرج من هذه الدراسة، وأي معنى تحمل بالنسبة لدعاوى الصهيونية السياسية وغير السياسية ؟ الشيء المحقق أن ما قد يختص ويشتهر به اليهود من طابع" أوْ "سحنة" مميزة هو أمر لا ينكره العلم تماما، ولكنه ظاهرة جزئية ليست بجامعة أو بمانعة من ناحية ، ومن ناحية أخرى فانها برمتها ظاهرة حضارية من صنع اليهود أنفسهم ونتيجة لإحساسهم الملتهب بذاتهم طائفيا وشعورهم المتضخم بكيانهم الدينى، وليست صفة جنسية دالة ولا تعني البتة وحدة الأصل أو نقاوة السلالة. بل على

العكس من هذا تماما، يمتاز اليهود بمناقضة فذة وحقيقية جدا: شبه تجانس أو شبه وحدة جزئية فى السحنة والنظرة العامة ، وتنافر مطلق فى الأصل الجنسى . ويحاول كون ان يجعل من اليهود طوال الرءوس من السفارديم وبعض الشرقيين وحدة اثنولوجية Ethnic Unit قائمة بذاتها، قد تتباين فيما بينها من منطقة إلى منطقة، ولكنها بعامة تتباين أكثر مع السكان المحيطين. وبالمثل يصور اليهود الإشكناز ومعهم بقية الشرقيين على أنهم وحدة اثنولوجية أخرى. ومع ذلك فهو يعترف بأن كل نوع أو سلالة جنسية معروفة فى أوروبا يمكن بسهولة أن تلتقط من مبين يهود القارة ، وأن أغلب اليهود يمثلون خليطا بطريقة أو بأخرى بين عديد من تلك الآنواع والسلالات. وكذلك يضيف أن من السهل جدا أن نلتقط من بين يهود الروسيا أفرادا يمتازون بالصدغ الواسع والأنف العريض القصير وعظام الوجنة البارزة بدرجة لا تفرقهم عن جماعات الفن المغولية التي تسكن منطقة الفولجا، بينما يوجد بين اليهود الألمان أفراد هم بكل معنى الكلمة نورديون مثاليون . ويمكن من ناحيتنا أن نضيف على مستوى العالم متناقضات كالموزايكو تكاد تغطى كل ما نعرف بين البشر من اختلافات. فى الصفات الجنسية. فثمة اليهود السود فى الحبشة وجنوب الصحراء الكبرى. واليهود الملونون فى الهند ، بل والصفر أحيانا فى التركستان، وأخيرا اليهود الشقر فى أوروبا. أو كما لاحظ دالبىDalby في أواخر القرن الماضى هناك كل الآنواع والألوان بين اليهود البيض والسمر والسود . هناك اليهودى الربعة غليظ الملامح عريض الرأس من الاشكناز، واليهودى النحيف دقيق الملامح طويل الرأس من السفارديم ، ثمة الأنف اليهودى المحدب والأنف

المقعر بين كثير من يهود الروسيا ، ثمة العيون اللوزية فى"السفارديم والمكتنزة الضخمة فى الاشكنازيم والعيون المغولية المسحوبة فى بعض يهود وسط آسيا .
وبعامة فإن السفارديم أشبه بعنصر البحر المتوسط والاشكناز اشبه بالصقالبة الشماليين . وفضلا عن هذا فإن الدراسات السيرولوجية اثبتت تماما أن اليهود يبدون فيما بينهم معدل تفاوت كبيرا جدا فى فئات الدم مما ينفى تجانس الأصل ، وأكثر من ذلك لا تبدى تلك الفئات أي علاقة بفئات الدم عند اليهود السامريين ، يؤكد عمق انفصالهم جنسيا عن الأصل القديم .
واضح تماما اذن أن الحديث عن وحدة جنسية بين اليهود ككل لا محل له من حقيقة أو علم على الاطلاق ، وأن اليهود لا يعرفون الوحدة الجنسية أكثر مما يعرفون الوحدة الجغرافية . وواضح بالتإلى أن النقاوة الجنسية المزعومة لهم إنما هى محض خرافة كما يعبر ربلى. والواقع ان هذه قضية لم تعد ، بل لم تكن قط، موضع جدل بين العلماء . فكما قال رينان من قبل ، أن المغزى الاثنولوجى لكلمة يهود - على الأقل فى شرق ووسط أوروبا قد انتهى منذ أمد طويل . وفى نفس المعنى أكد دالبى أنه ليس ثمة بعد أي شىء كقضية جنس يهودى على الاطلاق . وكما يقول ربلى من بعد : ليس اليهود جنسا بل مجرد "ناس" بكل بساطة .
وعلى هذا الحكم الحاسم الأخير يعلق مؤلفو كتاب «نحن الأوربيين **We Europeans** وهم جوليان هكسلى وهادون وكارسوندرز: "ونحن نعتقد انه على صواب . إن اليهود لا يمكن أن يصنفوا لا كأمة ولا حتى كوحدة اثنولوجية، بل هم بالأحرى مجموعة اجتماعية - دينية تحمل قدرا كبيرا من عنصر البحر المتوسط والأرمنى وغيرهما كثير ،
وتتفاوت تفاوتا عظيما فى الصفات الجسمية " . ثم يضيف هؤلاء الكتاب قائلين "إن اليهود المحدثين إن لم يكونوا أرمينيين فى الأعم الأغلب ، فإنهم بالتأكيد يبدون من الصفات الأرمينية أكثر مما يبدون من الصفات «السامية» وأن النمط الجنسى الذى يميز طائفة السامريين ، وإن كنا نلقاه بين اليهود المحدثين إلا أنه بالتأكيد نادر بينهم ومن بعد ربلى ومن بعد معلقيه إيضا يقرر هوتون **Hooton** بجزم قاطع "حقيقة هى لاشك ان اليهود مختلطون جنسيا ومن أصول طبيعية متنوعة" . وهو إذا كان يجد فيهم قدرا ما من وحدة طبيعية ونفسية وحضارية، فما هى بوحدة جنسية تماما ولا وطنية ولا لغوية ولكن إلى حد ما كل أولنك. ويؤكد اشلى مرنتجيو **Ashley Montagu** نفس الانتهاء فيقرر على النقيض مباشرة من كون أن اليهود ليسوا وحدة أثنولوجية بل،

بإصطلاحه، مجرد «معزولة حضارية .Cultural isolate والسؤال الآن: كيف تم اختلاط أو تخليط
اليهود ، وما هى الأدلة والشواهد التاريخية عليه؟
لنذكر أو لنتذكر أولا أن اليهود من أصحاب نظرية النقاوة الخرافية يحاولون بكل وسيلة إثبات العكس على أساس أن حياة العزل فى الجيتو والعداء والاضطهاد الدينى عوامل مضادة للاختلاط والتزاوج. ولكن الواقع التاريخى اليقينى كما سنرى يكذب هذا التصور أو التصوير تماما.
كذلك فانهم يتخذون من أسماء الاشخاص اليهودية دليلا على عدم التزاوج، فعلى سبيل المثال أسماء كوهن وكوهين.. الخ تشير إلى نسل الكرهانيم أو الكرهانين Cohanim أبناء هارون وكهنة المعبد القدامى (والاسم كوهين تحريف للكلمة العربية كاهن) وهؤلاء محرم عليهم كلية أي دم غريب. ولكن الحقيقة ان هذا الاسم خرج عن حدوده الأصلية وأصبح أكثر أسماء اليهود شيوعا . ومن الناحية الاخرى، فإن أسماء يهودية أصيلة وبحتة هى اليوم من أكثر الأسماء شيوعا بين الملايين من المسيحيين فى أوروبا. فكيف
حدث هذا بغير التزاوج والتجول ؟ الحق أن موقف اليهود أصحاب نظرية النقاوة ليس غير علمى فحسب ، ولكنه ايضا انتهازى ومغرض بوضوح، ولذا لا يمكن الاعتداد به فضلا
عن الاعتماد عليه. ويكفى للتدليل على هذا الذى نقول أن نذكر موقفهم أيام اضطهاد النازية فى ألمانيا. فلما كان كل شىء يقاس حينذاك بالجنس النوردى والأصل الآرى ، فقد كان اليهود يدعون أنهم من ذلك الجنس والأصل ليفلتوا من عقاب ولعنة السامية. أما الآن بعد اغتصاب فلسطين ، فكل دعواهم أنهم ساميون لحما ودما! ولكى نعرف أين الحقيقة فى هذا الإنقلاب الإنتهازى الفاضح ، يكفى أن نورد تعليق هوتون على اضطهاد ألمانيا النازية لليهود حيث يسخر قائلا أن اليهود ربما كانوا يمتلكون من الدم النوردى مثلما يمتلك الألمان أنفسهم ولاشك ان مما له مغزاه كذلك أن القليل من الكتاب الذين يأخذون بنظرية نقاوة اليهود الجنسية هم من دعاة النظريات العنصرية التي نبذها العلم تماما مثل هوستون ستيوارت تشمبرلن الذى يزعم أن تلك النقاوة هى سر قوتهم مثلما تجعلهم "غرباء بين كل الأمم"
التزاوج والتحول اذن حقائق لاشك فيها ، وعليها يجمع جمهرة الآنثروبولوجيين ابتداء من كين إلى ربلى إلى كون.. الخ . فهذا كين يتكلم عن "الزيادات الضخمة من (الجنتيل)

المتحولين" ، ويقول "أن آلافتراض بأن اليهود ضموا قليلا أو لا شيء من المتحولين هو افتراض لم يعد بعد مقبولا" ويضغط مؤلفو "نحن الأوروبيين، خاصة على نقطة مهمة وهى أن نمو أعداد اليهود فى المهجر بعد الشتات بمعدلات غير معقولة إنما يرجع فى جزء منه إلى التحولات الضخمة إلى اليهودية أما ربلى فيقرر ان ليس ثمة أيسر من اثبات الاختلاط والتزاوج والتحول بين اليهود والجنتيل فى أوروبا وخارج أوروبا .

ولقد كان هناك طريقان أساسيان لانتشار اليهودية وتمددها: التحول الدينى سواء من الوثنية أو المسيحية، والتزاوج والامتزاج الدموى. وللتحول شكلان رئيسيان: التحولات
بالجملة ، وهى معروفة محددة تاريخيا أهمها حالة الخزر والفلاشة واليهود السود من التاميل واليهود القرائين فى طوروس .

الشكل الثانى هو التحولات الفردية المستمرة فى كل مكان وزمان. أما التزاوج فشكلاه الزواج العلنى والسرى أو العلاقات الجنسية غير الشرعية . وكتاب اليهود يصرون على ضألة دور التحولات بعامة والتحولات الجماعية بخاصة فى انتشار اليهودية. وعلى اية حال فلا شك أن اليد العليا كانت دائما للتزاوج، هادئا ودفينا ومزمنا .

وقد ارتفع التزاوج المختلط بين اليهود والجنتيل الى نسب عالية فى فترات الهدوء وتوقف الاضطهاد، فإذا كان الزوج يهوديا نشأ الأبناء يهودا ، ولكن كان يحدث أحيانا أن تنتزع ديانة الزوجة اليهودية الأبناء من ديانة الأب .

أدلة الاختلاط التاريخية

فى ضوء هذه الأسس العامة نود الآن أن نستقرىء وقائع التاريخ نفسه ، ماذا تقول وكيف تحكم فى قضية الاختلاط والتحول. فإذا بدأنا عرضنا التاريخى من البداية، فسنجد أن يهود فلسطين التوراة تخلطوا فى عقر دارهم مع جيرانهم من الفلسطينيين (كما تدل قصة شمشون اليهودى ودليلة الفلسطينية) ومع جيرانهم من العموريين والحيثيين (كما يشير سفر حزقيال: "امك كانت حيثية، وعموريا كان ابوك") . وهذا الاختلاط الجنسى كان اقوى على حواف وهوامش كتلة هضبة يهودية المفتوحة نوعا منه فى قلبها الوعر المعزول. وكثيرا ما فرض على اليهود الذين اتخذوا زوجات "وثنيات" من الأجانب المحيطين أن يتركوا الوطن إلى تلك السهول المجاورة . كذلك فمن الثابت ابان الأسر البابلى الذى استمر ١٤ عاما ان كثيرا من اليهود تخلوا عن ديانتهم القديمة .

وبوجه عام فنحن نجد منذ بداية التاريخ أن الرفض للزواج المختلط بين اليهود والجنتيل لم يكن قط جنسيا بل دينيا ، بحيث ينتهى إذا تحول الجنتيل إلى اليهودية، والواقع أنه فى ايام اليهودية الأولى لم يكن الزواج من غير المؤمنين ممنوعا أبدا، كما حدث فيما بعد . هكذا يذكر المؤرخ جوزيفوس ان يهود انطاكية نجحوا فى تحويل الكثيرين إلى عقيدتهم وأدخلوهم مجتمعهم. وقد حدث عدد كبير للغاية من التحول الى اليهودية بلا شك فى القرن الثاني الميلادى .

ومن الأمثلة المهمة النساء اليهوديات اللائى تم بيعهن كاماء وأخذن إلى مقاطعة الراين كزوجات لجنود الرومان، وبعض هؤلاء الجنود هجروهن عند نقلهم إلى مواقع أخرى ، فشب ابناؤهم كيهود والثابت ان التحول والاختلاط كانا من المظاهر المتفشية قل العصر المسيحى مباشرة وفى قرونه الأولى . فحين تشتت اليهود فى العالم المتوسطى وجدوا أنفسهم ازاء اختيارين : إما أن يرتدوا وثنيين كجيرانهم الجدد، و إما أن يحتفظوا بديانتهم. وهناك -كما يقول بيرجل - "أصبح الكثيرون ، ربما الأغلبية وثنيين ، وذلك لأن من

بين القبائل الاثنتى عشرة عشرا «مفقودة » كما تحدثنا الروايات . وفى حالة التحول كان اليهود يفقدون كيانهم الجنسى جنبا إلى جنب مع كيانهم الدينى ، ويصبحون جزءا لا يتميز عن الأمة التي

أقاموا بينها. اما إذا ظلوا على يهوديتهم، فانها اذن العزلة الاجتماعية، ومن ثم فلا تزاوج إلا إذا تحول الوثنيون إلى اليهودية، وهذا بالدقة ما حدث

مرارا وتكرارا لأن اليهود قاموا بكثير من التبشير بنجاح عظيم عبر قرون طويلة ، وهذا ما يفسر جزئيا تنوعهم وتباينهم الجنسى . إلا أن الموقف تغير بعد أن أصبحت المسيحية الديانة الرسمية للامبراطورية الرومانية، حيث أصبح التحول إلى اليهودية صعبا، ولكن التزاوج والعلاقات غير الشرعية لم تتوقف .

أما فى العصور الوسطى حيث أصدرت المجالس الكنسية قرارات صارمة بمنع زواج المسيحيين باليهود كما فعل مجلسا توليدو عام ٥٣٨، ٥٨٩، ومجلس روما عام ٧٤٣، فإن أغلب الكتاب يفسرها على انها دليل على خطورة المدى الذى كان الزواج المختلط قد وصل اليه بالفعل .

بل أن اضطهاد القوط الغربيين فى أسبانيا لليهود فى القرن الخامس والسادس الميلاديين إنما يرجع كما يؤكد كين إلى نشاطهم التبشيرى الخطير والى تفشى الزواج المختلط بينهم وبين المسيحيين . وثمة أدلة أخرى على الاختلاط والتحول على نطاقات اقليمية كبيرة. فالسفارديم قبل خروجهم من أسبانيا كانوا قد استوعبوا دماء أيبيرية وغربية وبربرية كثيرة فى عروقهم. وفى شمال أفريقيا من المؤكد كما رأينا أن اليهودية كانت قوية الإنتشار بين كثير من قبائل البربر قبل قدوم الاسلام مباشرة وفى المغرب يبدو اليهود

المتكلمون بالبربرية اليوم مختلفين بشدة عن يهود السفارديم المتكلمين بالاسبانية فى المدن المغربية بينما أن اليهود المتكلمين بالعربية فى نفس المدن ينحدرون من أكثر من أصل يهودى واحد أهمه بلا شك العنصر البربرى . أما فى اوربا فالأدلة التاريخية تشير بكل قوة إلى أن اجداد الأشكناز اختلطوا مع ابناء غرب اوربا إلى ما قبل الحروب الصليبية الأولى اختلاطا أقوى من اختلاط أجدادهم الأحدث مع أبناء البلاد السلافية فى شرق القارة. فغزارة شعر اللحية والجسم وتموج شعر الرأس ، إلى جانب عرض الرأس ،

تدل على تأثير جنسى ألبى فرنسى أو ألمانى أكثر منها مؤثرات سلافية .

أما عن التحول ، فقد صدر كثير من التشريع الصارم ضد استخدام اليهود لخدم مسيحيين ، خشية تحولهم إلى اليهودية ثم الزواج بهم . إلا أن الأرجح أن هذا المنع لم يجد نفعا، حيث نجد على سبيل المثال كبير اساقفة المجر يقرر فى عام ١٢٢٩ أن كثيرا من اليهود كانوا يعيشون حياة غير

شرعيه مع زوجات مسيحيات ، وأن التحولات "بالآلاف" كانت مستمرة وفضلا عن هذا، فلم يكن القانون يتضمن حماية العبيد والأقنان من امكانية التهود والزواج من اليهود . وفى أسبانيا والبرتغال بعد الاسترداد أجبر مئات من الآلاف من
اليهود على التنصر بالقوة والتحول إلى المسيحية حيث ذابوا بعدها فى السكان .
أما فى عصرنا الحديث فتتوافر الأدلة والأحداث الثابتة التي تؤكد التزاوج والتحول على حد سواء . فمع الهجرة إلى العالم الجديد تحول كثير من الهنود الحمر والزنوج فى أمريكا الوسطى والجنوبية إلى اليهودية - ولا علاقة لهم جنسيا ودمويا باليهود اصلا. ومع اختفاء التعصب الدينى فى أوروبا الصناعية ، وأكثر منه مع العلمانية المطردة، انهارت الحواجز أمام التحول والزواج وتوسعت العلاقات غير الشرعية . وإذا كانت التحولات الجماعية بالجملة قد قلت ، فقد زادت بصورة لافتة للنظر التحولات الفردية فى
العصور الحديثة، ويمكن أن نتخذ من بعض الأسماء مؤشرا فى ذلك الاتجاه: مثلا الشاعر هاينى والموسيقى مندلسون وغيرهما من اليهود الذين اعتنقوا المسيحية . وفى روسيا القيصرية كان حصول اليهود على المساواة المدنية رهنا بتحولهم إلى المسيحية .
ومن الأدلة القاطعة بل والمثيرة على مدى اختلاط اليهود فى العصور الحديثة والوسيطة فى أوروبا ما كشفت عنه تجربة النازية فى ألمانيا . فقد كان على المرء الذى يبغى اثبات الدم الآرى فيه ان يقدم نسبا يخلو لعدة أجيال من العناصر غير الأرية، يعنى هنا اليهودية بالتحديد . ولكن المفاجأة أن التجربة كشفت أن عددا ضخما من الحالات من المواطنين الألمانيين "الى أقصى حد" ثبت أن أجدادهم وأجداد أجدادهم تجرى فى عروقهم الدماء اليهودية !- تماما كما تردد عن ريشار فاجنر من قبل.. وفى العام الماضى فقط أخرج كاتب فرنسى كتابا كان له دوى كبير حيث أثبت أو حاول أن يثبت بتتبع شجرات الآنساب الدقيقة لمعظم الشخصيات المسيحية البارزة فى العالم الغربى من عائلات مالكة ورؤساء وزعماء... الخ. كيف تجرى فى عروقهم دماء يهودية بدرجة أو بأخرى ، وبالعكس فإن كثيرا من اليهود المعروفين داخلتهم دماء مسيحية. أما فى الولايات المتحدة، حيث أعظم مستعمرة لليهود اليوم، فمن المعلومات العامة للكافة والخاصة انتشار الزيجات المختلطة ووجود أنصاف وأرباع اليهود ... إلخ ، لاسيما منذ القرن الماضى حين أصبح الزواج المدنى مباحا وقانونيا .

والواقع أن هذه النقطة الأخيرة تنقلنا إلى أخرى لا تقل أهمية ومغزى ، تلك أعنى ظاهرة ذوبان أو انصهار اليهود واندماجهم أو امتصاصهم فى شعوب العالم المعاصر الحديثة
Assimilatioh، وموقف الصهيونية السياسية منها . فالصهيونية إذ تحاول عبثا أن تجعل من اليهودية العالمية شعبا وقومية وأمة بل وجنسا مستقلا وليس مجرد طائفة دينية تقطع عبر ، وتجمع بين عشرات الشعوب والقوميات والأمم والأجناس، لا تزيف حقائق التاريخ الواقع فقط ، ولكنها تقاوم وتحارب حتمية حركة التاريخ التقدمية وتسعى إلى تجميد تطور المجتمع الإنسانى . فالصهيونية تعلم علم اليقين أن الاضطهاد الذى تعرض له اليهود فى أوربا الوسيطة والحديثة لا يرجع إلى التعصب الدينى وحده بقدر ما يرجع الى طريقة حياة اليهود وانعزالهم وطبيعة حرفهم الابتزازية ومركب إحساسهم المتضخم بأنفسهم وادعاءاتهم بالتفوق الموهوم، وتعلم الصهيونية كذلك أن عصور الاقطاع والحكم الاوتوقراطى المطلق ومناخ الطبقية التقليدية كانت تشكل بيئة ملائمة وقوى ضاغطة ودافعة لهذا الاضطهاد بمثل ما أن هذا الاضطهاد ذاته بيئة ملائمة وقوة دافعة لليهود أنفسهم إلى مزيد من الاصرار والتمسك بانعزاليتهم وانفراديتهم وتضادهم .
وهى - الصهيونية - ترى الآن ان روح الليبرالية المعاصرة السارية وتطور الوعى السياسى فى المجتمع الصناعى الحديث ومثل التسامح الدينى إن لم يكن اللامبالاة الدينية ،
كلها طفرات جديدة وخطيرة "تهدد" بانتهاء اضطهاد اليهود ونهاية ضد السامية ، وبالتالى تهدد بسقوط الستار الحديدى الذى ضربه اليهود حول أنفسهم وانتفاء التضاد السادى - المازوكى الذى افتعلوه مع بيئاتهم ، ومن ثم تهدد بذوبانهم فى شعوب الأمم ثقافة ولغة بل ودينا وجنسا .
ومن هنا تصل الصهيونية فى انحرافها إلى حد الشذوذ الفكرى والعنصرى ، فنجدها تحاول محمومة استبقاء مناخ الاضطهاد وشبحه وتجسيد اسطورته إلى الأبد لتوقف تيار الذوبان الغلاب الذى يظل مع ذلك يفرض نفسه كواقع قاهر يتمثل اخطر ما يتمثل فى التزاوج المختلط مع غير اليهود ، وفى تحول بعض اليهود إلى عقائد أخرى . ولئن كان هذا اليوم أوضح واخطر مايكون فى بوتقة الولايات المتحدة ، فإن أوروبا الغربية تعرفه أيضا بدرجة أو بأخرى . والخط التاريخى الذى أكد نفسه منذ البداية وهو تخلط وتهجن اليهود وذوبانهم جنسيا، يعيد اليوم تأكيد نفسه برغم انحرافات وشعارات الصهيونية ، بل ويفرض نفسه أكثر منه في أي وقت مضى .

ولنقف هنا قليلا عند يهود الولايات المتحدة الثابت أن اليهود حيثما حصلوا على المساواة القانونية الكاملة فى الحيثية المدنية، كما فى الولايات ، فكثيرا ما يتزوجون من الجنتيل . فإذا أصر الطرف اليهودى على أن يغير الطرف الأخر عقيدته نشأ الأبناء يهودا وظلت الاسر يهودية . أما إذا تحول الطرف اليهودى إلى المسيحية فقد يتزوج الأبناء فيما بعد يهودا ويعودون بذلك إلى اليهودية ، والا فإن الاسرة اليهودية تنقرض فى النهاية. غير أنه ليس ثمة حالة معروفة تحول فيها اليهود إلى المسيحية ثم ظل الجيل الثالث يهوديا وهكذا فإن التحول الدينى يؤدى فى النهاية إلى التمثل والانصهار مع المجتمع الأمريكى .

والاحصائيات تدل على زيادة مطردة فى الزيجات المختلطة بين اليهود . فقد وجد أحد الباحثين الاجتماعيين أن نسبة الزواج الداخلى بين اليهود فى مدينة نيوهافن عام ١٩٤٦ كانت ٩٧% ، وأن ٣% يتزوجون خارج الطائفة . ووجد بحث أخر أن نسبة الزواج المختلط فى نفس المدينة ارتفعت من ١ ر ١% إلى ٣ر٦% بين ١٩٠٠ ، ١٩٤٠، أي أنها وصلت إلى ضعف التقدير الأول. والواقع أن اليهود أكثر تعرضا للعلمانية المطردة إذا قورنوا بغيرهم من الأقليات الأمريكية. والى جانب ذلك فانهم كمجتمع مدن أساسا يمتازون بمعدل مواليد منخفض ، بل أشد انخفاضا منه بين أي مجموعة مدنية أخرى ، ولا يمكن أن يعوضوا أو يحافظوا على أعدادهم بالتزايد الطبيعي وفى النتيجة - هكذا ينتهى كاتب مثل بيرجل - فان يهود أمريكا لابد أن يتناقصوا عدديا سواء على الاطلاق أو بالنسبة إلى مجموع السكان ومع تسارع واطراد العلمانية والانصهار فلا مفر لهذا التناقض من أن يشتد ويشتد . ومن هنا يمكن أن نعتبر اليهود كأقلية فى الولايات المتحدة "ظاهرة عابرة" فى نهاية المطاف ، ولا يؤخر اختفاعهم النهائى الا ضد السامية أكثر من أي عامل أخر. ولا سبيل إلى الشك فى صحة هذه النبوءة العلمية ؛ فالصهيونية نفسها على وعى تام بها ، وهاهى ذى جولدا مايير أعلنت أخيرا.

صرخة محمومة أنه فى خلال جيل أو اثنين سينتقص يهود الولايات المتحدة إلى ٥ر١ مليون نسمة . لقد شهد شاهد من أهلها . اقصد اعترف متهم من عصابتها .

لن يجدى اذن تصايح وصراخ الصهيونية العالمية شيئا ازاء حضارة العصر المتفجرة المعدية الكاسحة التي لا مكان فيها لعزلة وعقلية الجيتو ، وأين ؟ فى قلب دوامة تلك الحفارة وفى عين إعصارها فى الغرب الأوروبى والأمريكى وإذا كانت العصور الوسطى هى عصر تحول غير اليهود

إلى اليهودية، فإن عصرنا أصبح بوضوح تام عصر تحول يهود إلى غير اليهودية! من هنا نفهم كيف ان الصهيونية "تتاجر" بالفعل فى الاضطهاد ، تذكى ذكراه وتؤجج ناره كلما خبت جذوتها أو رمادها وتراه ضمان بقائها ، فى الوقت الذى تمثل فيه إسرائيلها دولة المنتفعين بهذا الاضطهاد .
بل أن الفكرة الجذرية فى خلق إسرائيل ليست فى النهاية الا فكرة الجيتو بحذافيرها وإنما على مقياس مجمع كبير.
فهى وعاء موحد لاستبقاء انعزالية اليهود على الجوبيم وتضادهم معهم: إنها الجيتو دولة أو هى دولة الجيتو. ولكن كما ذاب ويذوب الجيتو فى الخارج لن يمضى وقت طويل حتى يذوب ويزول جيتو إسرائيل إلى الأبد .
وبعد ، فلقد انتهت رحلتنا عبر التاريخ بحثا عن الأدلة والشواهد اليقينية على اختلاط وذوبان اليهود ، فهل يمكن من محصلة هذا العرض المفصل ان نضع ايدينا على جوهر وميكانيزم العملية كلها؟ نعم، وجغرافى يهودى بالذات - هنتنجتون - هو الذى يضعها بين أيدينا ! فطوال التاريخ - كما يقول نلمح ظاهرتين أساسيتين : أعدادا ضخمة من غير اليهود تدخل اليهودية ، وفى نفس الوقت أعداد من اليهود لا تقل ضخامة تخرج من اليهودية .
وفى النتيجة فإن جسم الطائفة ليس ثابتا جنسيا بل هو متحرك وفى تغير داخلى مستمر وفى ابتعاد دائم عن الأصول الأولى بحيث يتضاءل أبدا وباستمرار حجم النواة النووية الحقيقية من بنى إسرائيل التوراة فيهم حتى لتكاد تختفى وتنقرض فضلا عن أن تظل قابلة للتعرف عليها وتحديدها. إنها عملية إحلال وإبدال مزمنة دائما، معدية أحيانا، ظاهرة ومستترة ، وئيدة ربما ولكنها أكيدة قطعا. إنها تكاد تقول عملية تغيير دم" كلية وشاملة .
وفى النتيجة يكاد يصبح جسم اليهود فى آخر المطاف شيئا مختلفا انثروبولوجيا عن يهود التوراة إن لم يكن لا علاقة له بهم تقريبا أو فى الأعم الأغلب. ويتأكد هذا كله حين نتذكر ما سبق أن المحنا اليه بشأن تعداد اليهود حيث بدأوا الشتات بأرقام هزيلة جدا ولكنهم سرعان ما بلغوا الملايين رغم كل المذابح والاضطهادات .
نستطيع إذن أن نخلص من هذا كله بثقة واطمئنان إلى أن اليهود يتألفون من دماء مختلطة كأشد ما يكون الاختلاط. وإذا كان ثمة خلاف بعد هذا، فإنما يدور حول المدى والدرجة والى أي حد. هنا نجد رايين أساسيين : فيرى ربلى أن اليهود يأخذون أينما كانوا صفات السكان الذين هم مقيمون

بيئهم وأبرز ما يتمثل هذا فى شكل الرأس ، الأساس الآنثروبولوجى الأول والجوهر ، ثم إلى حد ما فى لون البشرة ، وبناء على هذا يقبل رأى لومبروزو Lombroso القديم من أن اليهود جنسيا آريون أكثر منهم ساميين أو بتعبير أخر إنهم أوروبيون تهودوا أكثر منهم يهودا تأوربوا "والى نفس المدرسة والرأي ينتمى مؤلفو "نحن الاوربيين "إن اليهود ـ هكذا يؤكدون ـ من أصل مختلط ، وقد ظلوا باستمرار يزدادون اختلاطا" . ثم يضيفون "كان هناك دائما قدر معين من التزاوج بين اليهود وغير اليهود من سكان البلاد التي اقاموا فيها .

بحيث أن عددا من الجينات المستمدة من اليهود المهاجرين يتوزع بين مجموع السكان ، وأن المجتمعات اليهودية أصبحت تشبه السكان المحليين فى كثير من الخصائص. وبهذه الطريقة أصبح يهود أفريقيا وشرق أوروبا وأسبانيا والبرتغال ... الخ مختلفين بوضوح عن بعضهم البعض فى النمط الجسمى " ويؤكد نفس الكتاب الفكرة فى موضع آخر قائلين "والنتيجة أن يهود المناطق المختلفة ليسوا متماثلين جينيا وأن السكان اليهود فى كل بلد يتداخلون ويتشابكون مع غير اليهود فى كل صفة يمكن تصورها. وكلمة يهودى صحيحة كوصف اجتماعى ـ دينى أو شبه قومى أكثر منها كتعبير اثنولوجى في أي ممنى جينى (ولو أن هذا لا يقصد به أن اليهود أمة بالمعنى المفهوم للكلمة) . وكثير من الصفات «اليهودية » هى بلا شك نتاج التقاليد والتربية اليهودية خاصة رد الفعل ضد الضغط الخارجى والاضطهاد أكثر منه نتاج الوراثة"

ومرة ثالثة يضغط هؤلاء المؤلفون على نفس الآنتهاء فيقولون إن "ما احتفظوا به وورثوه ليس «صفات جنسية ، بل تقاليد دينية واجتماعية .

فاليهود لا يؤلفون جنسا محددا وإنما مجتمع يشكل جماعة شبه قومية ذات أساس دينى قوى وتقاليد تاريخية خاصة. وأنه لخطأ غير مشروع أن نتكلم عن «جنس يهودى » تماما كما لو تكلمنا عن جنس أرى هذا عن الرأي الأول فى اليهود . أما الرأي الثانى فيمثله كون الذى يقبل تشكلهم بصفات السكان المحيطين لكنه يرى فيهم إلى جانب ذلك

اثار الأصل الفلسطينى العبرى القديم بخصائصه المتوسطة، وبخاصة فى شكل الوجه الطويل وابعاد أو حجم الرأس الصغير. ومن هذا المنطلق يدير كل مناقشته على أساس ان اليهود اليوم فى بيئاتهم المختلفة ليسوا مجرد جماعات من أبناء تلك البيئات تحولوا إلى اليهودية ، وإنما هم فى الأغلب الأعم يهود حقيقيون من أبناء الشتات الفلسطينى امتزجوا دمويا بأبناء تاك البيئات الأصليين مثلا:

يهود العراق يهود حقيقيون وليسوا عراقيين تهودوا، يهود بخارى والتركستان ليسوا مجرد تاجيك أو سارت تهودوا بل أصلا
يهود ولكن استعرضت رؤوسهم بالاختلاط بهؤلاء ، ويهود وسط أوروبا ليسوا ببساطة أوروبيون تهودوا وانما يهود تأوربوا.. ويقدر كون - كمجرد تخمين بحت كما يعترف أن نسبة عنصر البحر المتوسط الفلسطينى الاصلى فى يهود أوروبا الأشكناز قد تزيد على نصف جميع العناصر الداخلة فى تكوينهم ، وهى بذلك أهمها .
ومن هذا كله ينتهى إلى أن اليهود "ليسوا مجرد كومة عشوائية Grob-dag توحد بينها رابطة مشتركة من الدين بلا تماسك بيولوجى أكثر مما لوحدات عفوية كمستمعى الراديو أو عاملات الحياكة" ! وقد يمكن أن نعد موقف هنتنجتون قريبا من موقف كون ، حيث يسمى اليهود - بلغته الخاصة - «مجموعة قربى Krrh» شانهم فى ذلك شأن البيوريتان أو الماورى أو الاغريق (كذا) غير أننا نرى فى هذه التشبيهات المتنافرة ما يعقد الصورة أكثر مما يبسطها، ويكفى ان نتخذ من كون علما على الرأي ورمزا له   أين تقع الحقيقة بين هذين الرأيين - والفارق بينهما فارق كبير فى الدرجة يوشك أن يكون فارقا فى النوع ؟ هذا هو السؤال. المحقق أننا لا يمكن علميا أن نستبعد من بعض من يهود العالم نسبة ما من الأصل الفلسطينى القديم. ولكن من المحقق أيضا أن تقدير كون وتصويره يبالغ بعامة فى تلك النسبة . فالملاحظ أولا ان الفروق الجسمية التي يسجلها بين اليهود وجيرانهم ضئيلة غالبا وواهية جدا أحيانا. وثانيا وأهم من ذلك أنه مادامت الدماء الأجنبية الغريبة قد غزت اليهود وداخلتهم -حتى ولو كانوا من أصل فلسطينى قديم - إلى الحد الذى يقربهم - على الأقل من هؤلاء الجيران ، فقد ابتعدوا وانفصلوا تماما عن ذلك الأصل السحيق . وليس من المتصور أليس كذلك ؟- غير هذا بعد نحو الفى سنة من التشتت والاختلاط ، لاسيما إذا تذكرنا - وهو اعتبار مهم للغاية - ان كل قوة يهود الشتات حين خرجت من فلسطين بعد هدم الهيكل الثانى لم تزد عن ٤٠ الفا ! وهذا الرقم وحده يكفى ليوحى، رغم كل قيود العزل والاضطهاد ، بأن يهود الشتات الاصلاء قد ذابوا وانصهروا وضاعوا فى محيط المهجر كقطرة فى بحر ، وأن يهود العالم اليوم فى سوادهم الأعظم هم أجانب متحولون أكثر منهم يهودا متجولين .
ماذا يتبقى فيهم إذن من بنى إسرائيل التوراة و من بنى إسرائيل التوراة فيهم ؟ إن من يمكن أن يعد منهم من نسل بنى إسرائيل التوراة حقا ومباشرة لا يزيدون على نسبة بالغة الضآلة إلى أقصى

حد . مثلا فى أواخر القرن الماضى يجد الآنثروبولوجى المخضرم المعروف فيلكس فون لوشان Von Luschan أنه «من بين يهودنا المحدثين نحو ٥% عراض رؤوس ، ١١% ذوو بشرة بيضاء وما لا يزيد عن ٥ % يتفقون مع ما عرفنا أنه النمط السامي القديم . وهذا يتفق تماما مع ما تؤكده دراسة حديثة جدا قام بها فى العام

الاخير فقط انثروبولوجى بريطانى هو جيمس فنتون على يهود إسرائيل توصل فيها إلى أن ٩٥ % من اليهود ليسوا من بنى إسرائيل التوراة، وإنما هم أجانب متحولون أو مختلطون . ولئن صح هذا ولعله صحيح، وهو بالتأكيد اقرب إلى الصحة والمنطق من تخمينات كون - فمعناه ان الصلة الجنسية والجينية بين يهود اليوم ويهود التوراة منبتة وفاقدة تماما من الناحية العملية، وأنهم بالفعل اوروبيون سلاف أو آريون أكثر منهم ساميين. وهذا يصدق على الأشكنازيم فى أوروبا، وعلى امتدادهم الأمريكى الذى زاد اختلاطه فى البوتقة الأمريكية، أكثر منه على أية مجموعة اخرى من اليهود ، مع ملاحظة أنهم - الأشكنازيم - هم السواد الأعظم من يهود العالم عدديا .

والخلاصة الموضوعية أن يهود العالم اليوم مختلطون فى جملتهم اختلاطا بعد بهم عن أي اصول إسرائيلية فلسطينية قديمة حتى لم تعد هذه تمثل فى تكوينهم إلا قطرة فى محيط . وإذا كان ثمة تحفظ ما، فهو أن هناك مراحل ودرجات من هذا التخليط، فبعض المجتمعات اليهودية كيهود التركستان اقل تهجنا وتخلطا والبعض أكثر كالاشكنازيم. غير أن الحقيقة الحاسمة والفاصلة هى ان الأقل تخليطا إنما يمثلون عدديا نسبة بالغة الضآلة من مجموع اليهودية العالمية ، بينما أن المخلطين تماما والذين ابتعدوا جدا أو كلية عن

الأصول الأولى يشكلون الأغلبية الساحقة منهم . ومن هنا فلا جناح علينا إذا نحن قررنا فى النهاية ان اليهود اليوم ليسوا من بنى إسرائيل ، وأن هؤلاء شىء واولئك شىء أخر انثروبولوجيا، وألا رابطة بين الطرفين إلا الدين والدين فقط .

أفكار خاطئة

وتخريجا من هذا وترتيبا عليه ، تسقط على الفور عدة أفكار ومعتقدات شائعة ومتفشية ولكن لا ظل لها من الحقيقة فى نظر العلم الصحيح فأولا ، مادام اليهود لم يعودوا من الساميين فى شىء، فيمكننا هنا أن نرى الخطأ الشائع الفاشي ، إن لم يكن المغالطة الكبرى العامدة ، فى تسمية اضطهاد اليهود "بضد السامية" ، فنحن فى الحقيقة ازاء "ضد اليهودية" ببساطة وبلا تعقيد. وإذا كان الألمان يتكلمون عن ضد الساميه وكراهية اليهود كمترادفين ، فإن التعبير الآخر أدنى إلى الحقيقة العلمية من الأول ولا تفسير لهذه

التسمية الخاطئة أنها تعتمد على أسس أو مداورة الإنجيل والتوراة التي تسبق بكثير التغير الجذرى والإحلال والإبدال المطلق الذى لحق دماء اليهود .

والاضطهاد النازى لليهود فى ألمانيا لم يكن فى جوهره الا اضطهاد ألمان لألمان، لا يقل معظمهم عنهم فى الآرية والنوردية، وإنما يختلفون فقط فى الديانة. وطريقة الحياة .

يسقط كذلك ببساطة وتلقائية أي دعوى قرابة دم بين العرب واليهود : قد يكون يهود التوراة والعرب أبناء عمومة وإنما تاريخيا فحسب حين بدأ الكل قبائل مختلفة من الساميين الشماليين وحين كانت العبرية لغة تشتق من الأصول العليا التى تفرعت عنها العربية ، وقد يكون من الصحيح ، بل إنه الصحيح بالفعل ، أن اسماعيل أبا العرب وإسحق أبا اليهود أخوة غير اشقاء وكلاهما ابنا إبراهيم - ولكن فى البداية فقط تصدق هذه الأخوة على نسليهما، أما بعد ذلك فقد ذاب نسل أحدهما فى دماء غريبة ووصل الذوبان إلى حد الإحلال حتى أصبحنا ازاء قوم غرباء لا علاقة لهم البتة بإسحق فضلا عن اسماعيل. ولا يمكن بعد أن اختفى يهود التوراة كشبح أن يكون يهود أوروبا والعالم الجديد اقارب

العرب جنسيا أكثر من قرابة الأوروبيين والأمريكيين للعرب ! ولغير هذا - حتى لو قال به ملوك العرب ابتداء من فيصل بن الحسين إلى فيصل أل سعود ليس إلا من قبيل اوهام العوام بل جهالات الملوك ؛ إن اليهود اليوم إنما هم اقارب الأوروبيين والأمريكيين ، بل هم فى الأعم الأغلب بعض وجزء منهم وشريحة، لحما ودما، وإن اختلف الدين ومن هنا فإن اليهود فى أوروبا وأمريكا ليسوا

كما يدعون غرباء أو أجانب دخلاء يعيشون فى المنفى وتحت رحمة أصحاب البيت، وإنما هم من صميم أصحاب البيت نسلا وسلالة ، لا يفرقهم عنهم سوى الدين. أما أين يمكن أن يكون اليهود غرباء فى منفى ودخلاء بلا جذور فذاك فى بيت العرب وحده، فى فلسطين حيث لا يمكن لوجودهم إلا أن يكون استعمارا واغتصابا بالقهر والابتزاز . وغير هذا قلب بشع لحقائق التاريخ انثروبولوجيا وغير انثروبولوجى وانطلاقا من هذا يسقط كذلك أي ادعاء سياسى للصهيونية فى "أرض الميعاد" . فبغض النظر عن أن القانون الدولى يتكفل بشجب وتفجير ادعاءاتهم على أي أساس تاريخى أو دينى ، فإن الآنثروبولوجيا تبدد أي أساس جنسى قد يزعمون في هذا الصدد .
فمن ناحية ليس اليهود قومية ولا هم شعب أو أمة ، بل هم مجرد طائفة دينية تتألف من اخلاط من كل الشعوب والقوميات والأمم والأجناس. ومن ناحية اخرى فلا علاقة لهم
جنسيا أو انثروبولوجيا بفلسطين ، وهم أجانب غرباء عنها دخلاء عليها مثلما يعد الأوروبيون أو الأمريكيون بالنسبة اليها. وهم حين يغتصبونها ليخلقوا منها إسرائيل الصهيونية ، فليست هذه عودة الابن القديم بعد رحلة طالت عبر الزمان والمكان ، وإنما هى غزو الأجنبى الغريب بالاثم والعدوان وتداعيا وانطلاقا من هذا الانتهاء الأخير ، ينبغى ايضا وفى النهاية ان نرفع نغمة حذر أو تحذير حول قضية ليست هى القضية الفلسطينية ولكنها تشبهها أو بالأحرى تشبه بها، ونعنى بذلك ما يسمى دعوة "الصهيونية السوداء" . فالأخوة آلافريقيون فى صحوة نهضتهم الحديثة قد وجدوا - كارث من عصر الرقيق - قطاعا منهم خارج أفريقيا فى العالم الجديد يعيش فى أدنى السلم الاجتماعى وتحت ضغوط التفرقة العنصرية الضارية. ومن ثم نادى بعضهم جارفى والجارفية Gurvey بالعودة إلى أفريقيا الام كحل لمشكلتهم فى أمريكا وبغض النظر هنا عما لاقته الدعوة عمليا وفكريا من فشل أو معارضة ، فقد كان أثيرا لدى أصحابها تشبيه الموقف بموقف الصهيونية فجعلوا تهجير الرقيق الأفريقي إلى العالم الجديد هو الخروج الأسود Black Exodus والشتات الأفريقي A.Diaspora" وجعلوا أفريقيا الأم هى "أرض الميعاد" و" الوطن القومى" ورؤيا العودة هى "الصهيونية السوداء"
والذى يعنينا. هاهنا ليس الحكم على الدعوة أولها ، وإنما ان ننبه اصدقاءنا آلافريقيين برفق الى خطورة وخطأ التشبيه. فإذا كان زنوج أمريكا هم فعلا وحقا من سلالة أفريقيا، فإن الأغلبية الساحقة من يهود عالم اليوم ليسوا من بنى إسرائيل أو سلالة فلسطين فى شىء . وإذا كان لزنوج

أمريكا نظريا حق تاريخى وجنسى فى العودة إلى أفريقيا، فليس لليهود مثل ذلك الحق بتاتا بالنسبة إلى فلسطين . ومن ثم فلا مجال ولا وجه للتشبيه بالصهيونية . بل إنه لتشبيه يسيئ الى فكرة العودة الأفريقية أكثر مما يفيدها. والصهيونية من جانبها تتلقف هذا التشبيه لتتقرب به إلى زنوج الولايات المتحدة والعالم الجديد وتستدر عطفهم المخدوع على حركتهم العادية الغاصبة. إنه إذن تشبيه غير موفق ، وهو

غير صحيح إلى ذلك وقبل ذلك ، ومن الخير لأصدقائنا الأفريقيين وخير قضيتهم وقضيتنا معا ان يسقطوه والفكرة الخاطئة التي تكمن خلفه .

ملحق لتعديث كتاب د . جمال حمدان

تتسم كتابات الدكتور جمال حمدان بعمقها الفكرى وأطروحاتها ذات المقدرة التوليدية العالية.. ولذا فقيمتها الفكرية والمنهجية تظل باقية، وان تغيرت بعض الحقائق والمعلومات. إذ تظل نماذجه التحليلية التفسيرية التصنيفية هى القيمة الأساسية التي تركها لنا وهى التي نتعلم منها كيف نفكر ونفسر ونصنف ومع هذا من المفيد لقارىء هذا الكتاب المرجع أن يعرف الصورة العامة لأعداد اليهود فى العالم ومسار هجراتهم حتى عام ١٩٩٥، وهكذا مايحاول أن يزوده هذا الملحق به ولنلاحظ انه رغم تحديث الأرقام فإن
النموذج التصنيفى العام لم يتغير والذى ينطلق من رؤية الجماعات اليهودية باعتبارها جماعات بشريه يسرى عليها مايسرى على غيرها من قوانين، أي أنها لاتشكل شعبا مختارا أو عصابة إجرامية .

تعداد الجماعات اليهودية وتوزعها في العالم وبعض المعالم السكانية فى الوقت الحاضر ١٩٩٢

يقدر عدد سكان العالم من اليهود طبقا لإحصاءات عام ١٩٨٧ بنحو ١٣ مليونا «٠٩٣٤٠٦٠٠ ١٢» وصل إلى ٨٠٠. ١٢٠٩١٣ عام ١٩٩٢ «حسبما ورد فى الكتاب السنوى الأمريكى اليهودى لعام ١٩٩٤». وهو يقل قليلا عن عددهم فى عام ١٩٨٢، والبالغ ٦٠٠ ١٢٠٩٨٨ أو عددهم في عام ١٩٨٤ وهو ١٢.٩٦٢.٣٠٠ «وهو ما يدل على أن يهود العالم قد وصلوا إلى نقطة الصفر فى النمو» وقد تناقص هذا العدد عن عددهم فى عام ١٩٦٧ حيث كان ٥٠٠. ٨٣٧. ١٣ أي أن عدد اليهود نقص بنحو المليون فى الفترة

من عام ١٩٦٧ حتى عام ١٩٨٢ دون إبادة ومن خلال تناقص طبيعى، والجماعات اليهودية موزعة فى الوقت الحاضر من الناحية الجغرافية فى كل أرجاء العالم على النحو التالى

أوربا «بما فى ذلك روسيا الآسيوية والبلقان وتركيا»	١,٩٢٤,٢٠٠
اسيا «فلسطين المحتلة أساسا»	٤,٣٧٨,٦٠٠
أفريقيا (جنوب أفريقيا اساسا)	١٠٦,٧٠٠
أمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية «الولايات المتحدة أساسا»	٦,٤٠٩,٧٠٠
استراليا ونيوزيلندا	٩٤,٦٠٠
المجموع	١٢,٩١٣,٨٠٠

وأكبر توسع جماعات يهودية هى

الدولة	نسبتهم الى يهود العالم	عدد أعضاء الجماعة اليهودية
الولايات المتحدة	٪٤٣.٥	٥،٦٢٠،٠٠٠
إسرائيل	٪٣٢.٨	٤،٢٤٢،٥٠٠
فرنسا	٪٤،١	٥٣٠،٠٠٠
روسيا	٪٣.٢	٤١٥.٥٠٠
كندا	٪٢.٨	٣٥٦،٠٠٠
بريطانيا	٪٢.٣	٢٩٨،٠٠
أوكرانيا	٪٢.١	٢٧٦،٠٠٠
الارجنتين	٪١.٦	٢١١،٠٠٠
جنوب أفريقيا	٪٠،٨	١٠٠،٠٠٠

وإذا نظرنا إلى توزع أعضاء الجماعات اليهودية من منظور التشكيلات الحضارية والسياسية، فإن الصورة سوف تختلف تماما، فلو استبعدنا سكان المستوطن الصهيونى ، فإن أعضاء الجماعات اليهودية يتركزون أساسا فى أمريكا الشمالية حيث توجد أغلبيتهم الساحقة التي تبلغ «٤٦.٢٤% وفى أوربا الفربية حيث تبلغ ٩. ١٤ % وروسيا وأوكرانيا حيث نسبتهم ٥.٣% أي أن ٨. ٦٩% من يهود العالم باستثناء فلسطين المحتلة يوجدون فى أمريكا الشمالية وأوربا، ويعيش معظمهم فى الوقت الحالى فى البلدان الناطقة بالآنجليزية «الولايات المتحدة وكندا وإنجلترا وأستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا» ولذا فإنه يمكننا أن نقول: إن اللغة التي يتحدث بها أعضاء الجماعات اليهودية هى الإنجليزية وليس العبرية أو اليديشية.. ومن الملاحظ أن الجماعات اليهودية فى أوربا الشرقية والاتحاد السوفييتى وأوربا أخذة فى الذوبان وأن عددهم فى أمريكا اللاتينية أخذ فى التناقص السريع.. ولذا يمكننا التنبؤ بأن يهود العالم أو ما يقال له «الشعب اليهودى» سيصبح جزءا لايتجزأ من الشعب الأمريكى بعد أن كان جزءا لايتجزأ من التشكيل الاستيطانى الغربى ومن شعوب شرق أوربا ونلاحظ فى الجدول السابق الذى يبين أكبر تسع جماعات يهودية فى العالم أن ٩٣٠٢ % من يهود العالم يعيشون فى تسعة مراكز رئيسية بما فى ذلك الدولة الصهيونية، وان ٧٦.٣% يعيشون فى دولتين اثنتين «الولايات المتحدة وإسرائيل» ونلاحظ أن البلاد التي يوجد فيها أعضاء الجماعات اليهودية تتمتع بمستوى معيشى

مرتفع ودخول مرتفعة، كما أنها تنتمى إلى مايمكن تسميته بالتشكيل العرقى الأبيض، ففى الأرجنتين، حيث توجد أعلى نسبة من البيض فى أمريكا اللاتينية توجد أيضا أعلى نسبة من اليهود وهناك عنصر أخر يرتبط بالعنصر السابق وهو أن نسبة ١٥% من يهود العالم توجد فى أوربا، وتوجد الأغلبية العظمى فى دول
استيطانية : الولايات المتحدة وكندا اللتان تضمان ٥.٩٧٦.٠٠٠ .٤٦.٢٧% من يهود العالم وإسرائيل التي تضم ٤.٢٤٢.٥٠٠ ٣٢.٨٥٠% من يهود العالم. وجنوب أفريقيا التي تضم ٨.١٠٠.٠٠٠ % والبرازيل والارجنتين وبقية دول أمريكا اللاتينية ٣٨٢.٠٠٠ ، ٢.٩% ويمكن أن نضيف كذلك أستراليا ونيولأيلثدا التي تضم ٩٤.٦٠٠ .٧ % أي أن الجماعات اليهودية مرتبطة بأوربا وبتجربتها الاستيطانية جغرافيا وتاريخيا، إذ يوجد فى هذه البلاد ٩١% من يهود العالم، وكذلك فإن الدياسبورا اليهودية ، أي انتشار أعضاء الجماعات فى أنحاء العالم ليست ، انتشارا عشوائيا، وإنما هو انتشار يصاحب انتشار التشكيل الاستعمارى الغربى خصوصا فى جانبه الاستيطانى، وبالتالى فإن إسرائيل لاتشكل استثناء من القاعدة بل هى جزء من نمط غربى عالمى، وارتفاع الدخول ليس منفصلا تماما عن العنصر الاستيطانى اذ أن التجربة الغربية الاستيطانية كانت تهدف أساسا إلى حل المشاكل الاقتصادية للمجتمعات الغازية، وكانت إحدى أهم المشاكل هى الفائض البشرى. وقد كان المجتمع الغربى ينظر إلى اليهود باعتبارهم مادة بشرية استيطانية نافعة فتحركوا أو تم تحريكهم داخل هذا الاطار . وفيما يلى توزع أعضاء الجماعات اليهودية فى العالم فى احصائيات ١٩٩٢
الأمريكتان

١ ـ الشمالية

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان فى الألف
كندا	٢٧,٧٥٥,٠٠٠	٣٥٦,٠٠٠	١٢,٨
الولايات المتحدة	٢٥٧,٨٤٠,٠٠٠	٥,٦٢٠,٠٠٠	٢١,٨
المجموع	٢٨٥,٥٩٥,٠٠	٥,٩٧٦,٠٠٠	٢٠,٩

٢ ـ الوسطى

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود الى نسبة السكان فى الالف
الانتليز الهولندية	١٧٥,٠٠٠	٤٠٠	٢.٣
بنما	٢,٥٦٢,٠٠٠	٥,٠٠٠	٢.٠
بورتوريكو	٣,٦٢٦,٠٠٠	١,٥٠٠	٠.٤
جامايكا	٢,٤٩٥,٠٠٠	٣٠٠	٠.١
جزر البهاما	٢٦٨,٠٠٠	٣٠٠	١.١
جواتيمالا	١٠,٠٢٩,٠٠٠	٨٠٠	٠.١
الدومينكان	٧,٦٢١,٠٠٠	١٠٠	–
فيرجن ايلاند	١٠٧,٠٠٠	٣٠٠	٢.٨
كوبا	١٠,٧٠٩,٠٠٠	٧٠٠	٠.١
كوستاريكا	٢,٢٧٠,٠٠٠	٢,٠٠٠	٠.٦
المكسيك	٨٩,٩٩٨,٠٠٠	٤٠,٠٠٠	٠.٤
بلاد أخرى	٢٥,٢٣٠,٠٠٠	٣٠٠	–
المجموع	١٥٦,٢٨٩,٠٠٠	٥١,٧٠٠	٠.٣

٣ ـ الجنوبية

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
الارجنتين	٣٣.٤٨٧.٠٠٠	٢١١.٠٠٠	٦.٣
إكوادور	١١.٣١٠.٠٠٠	٩٠٠	٠.١
أوروجواى	٣.١٤٩.٠٠٠	٢٣.٨٠٠	٧.٦
باراجواى	٤.٦٤٣.٠٠٠	٩٠٠	٠.٢
البرازيل	١٥٦.٥٧٨.٠٠٠	١٠٠.٠٠٠	٠.٦
بوليفيا	٧.٧٠٥.٠٠٠	٧٠٠	٠.١
بيرو	٢٢.٩١٢.٠٠٠	٣.٠٠٠	٠.١
سورينام	٤٤٦.٠٠٠	٢٠٠	٠.٤
شيلى	١٣.٨١٣.٠٠٠	١٥.٠٠٠	١.١
فنزويلا	٢٠.٦١٨.٠٠٠	٢٠.٠٠٠	١.٠
كولومبيا	٢٢.٩٨٥.٠٠٠	٦.٥٠٠	٠.٢
المجموع	٣٠٨.٦٤٧.٠٠٠	٢٨٢.٠٠٠	١.٢
المجموع الكلى للأمريكتين	٧٥٠.٦٣١.٠٠٠	٦.٤٠٩.٧٠٠	٨.٥٣

استراليا ونيوزيلاندا :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
استراليا	١٧.٨٤٣.٠٠٠	٩٠.٠٠٠	٥.٠
نيوزيلاندا	٣.٤٨٧.٠٠٠	٤.٥٠٠	١.٣
بلاد أخرى	٦.٦١٧.٠٠٠	١٠٠	–
المجموع	٢٧.٩٤٧.٠٠٠	٩٤.٦٠٠	٣.٤

آسيا :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
إسرائيل	٥.١٩٥.٩٠٠	٤.٢٤٢.٥٠٠	٨١٦.٥

الدول الآسيوية فى الاتحاد السوفييتى «سابقا»

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان فى الألف
أذربيجان	٧,٢٠٠,٠٠٠	٢١,٠٠٠	٢.٩
أرمينيا	٣,٥٠٠,٠٠٠	٣٠٠	٠.١
أوزبكستان	٢١,٦٠٠,٠٠٠	٤٥,٢٠٠	٢.١
تركمانيا	٤,٠٠٠,٠٠٠	١,٩٠٠	٠.٥
جورجيا	٥,٥٠٠,٠٠٠	١٨,٠٠٠	٣.٢
طاجكستان	٥,٧٠٠,٠٠٠	٥,٠٠٠	٠.٩
كازخستان	١٧,٢٠٠,٠٠٠	١٤,٥٠٠	٠.٨
قريفيزيا	٤,٦٠٠,٠٠٠	٣,٧٠٠	٠.٨
المجموع	٦٩,٣٠٠,٠٠٠	١٠٩,٦٠٠	١.٦

بلاد آسيوية أخرى :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان فى الألف
إيران	٦٣,١٨٠,٠٠٠	١٦,٠٠٠	٠.٣
تايلاند	٥٦,٨٦٨,٠٠٠	٢٠٠	–
سنغافورة	٢,٧٩٨,٠٠٠	٣٠٠	٠.١
سوريا	١٣,٧٦٢,٠٠٠	١,٢٠٠	٠.١
العراق	١٩,٩١٨,٠٠٠	٢٠٠	–
الفلبين	٦٦,٥٤٣,٠٠٠	١٠٠	–
كوريا الجنوبية	٤٤,٥٠٨,٠٠٠	١٠٠	–
الهند	٨٩٦,٥٦٧,٠٠٠	٤,٥٠٠	–
هونج كونج	٥,٨٤٥,٠٠٠	١,٠٠٠	٠.٢
اليابان	١٢٤,٩٥٩,٠٠٠	١,٠٠٠	–
اليمن	١٢,٩٧٧,٠٠٠	١,٦٠٠	٠.١
بلاد أخرى	١,٩١٨,٥٠٦,١٠٠	٣٠٠	–
المجموع	٣,٢٢٦,٤٣١,١٠٠	٢٦,٥٠٠	–
المجموع الكلى للبلاد الآسيوية	٣,٣٠٠,٩٢٧,٠٠٠	٤,٣٧٨,٦٠٠	١.٣

أفريقيا :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان فى الألف
إثيوبيا	٥٤,٦٢٨,٠٠٠	١,٥٠٠	–
تونس	٨,٥٧٩,٠٠٠	٢,٠٠٠	٠,٢
الجزائر	١٩,٥٩٠,٠٠٠	٢٠٠	–
جنوب أفريقيا	٤٠,٧٧٤,٠٠٠	١٠٠,٠٠٠	٢ ٥
زائير	٤١,١٦٦,٠٠٠	٤٠٠	–
زامبيا	٨,٨٨٥,٠٠٠	٣٠٠	–
زمبابوى	١٠,٨٩٨,٠٠٠	١,٠٠٠	٠,١
مصر	٥٦,٠٦٠,٠٠٠	٢٠٠	–
بلاد أخرى	٤٢٧,٩٩٠,٠٠٠	٢٠٠	–
المجموع	٦٦,٨٥٧,٠٠٠	١٠٦,٧٠٠	١,٦

أوربا

الجماعة الأوربية:

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان فى الألف
اسبانيا	٣٩.١٥٣,٠٠٠	١٢,٠٠٠	٠,٣
ألمانيا	٨٠.٦٠٦.٠٠٠	٥٠,٠٠٠	٠,٦
أيرلندا	٣.٤٨١,٠٠٠	١,٨٠٠	٠,٥
ايطاليا	٥٧.٨٢٦.٠٠٠	٣١,٠٠٠	٠.٥
البرتغال	٩.٨٧٠,٠٠٠	٣٠٠	–
بلجيكا	١٠.٠١٠.٠٠٠	٣١.٨٠٠	٣,٢
الدنمارك	٥.١٦٩.٠٠٠	٦,٤٠٠	١,٢
فرنسا	٥٧.٣٧٩.٠٠٠	٥٣٠,٠٠٠	٩.٢
لكسمبورج	٣٨٠.٠٠٠	٦٠٠	١.٦
المملكة المتحدة	٥٨.٠٣٩.٠٠٠	٢٩٨.٠٠٠	٥.١
هولندا	١٥.٣٧٠.٠٠٠	٢٥.٦٠٠	١.٧
اليونان	١٠.٢٠٨,٠٠٠	٤,٨٠٠	٠.٥
المجموع	٣٤٧.٢٩١.٠٠٠	٩٩٢,٣٠٠	٢.٩

باقى دول أوربا الغربية :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان فى الألف
جبل طارق	٢١.٠٠٠	٦٠٠	١٩.٤
السويد	٨.٦٩٢.٠٠٠	١٥,٠٠٠	١.٧
سويسرا	٦.٨٦٢.٠٠٠	١٩,٠٠٠	٢.٨
فنلندا	٥.٠٢٠.٠٠٠	١,٢٠٠	٠.٣
النرويج	٤.٢١٠.٠٠٠	١,٠٠٠	٠.٢
النمسا	٧.٨٠٥.٠٠٠	٧,٠٠٠	٠.٩
بلاد أخرى	٧٧١.٠٠٠	١٠٠,٠٠	٠.١
المجموع	٣٣.٤٩١.٠٠٠	٤٤.٠٠٠	١.٣

الدول الأوربية في الاتحاد السوفييتي «سابقا» :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان فى الألف
استونيا	١,٦٠٠.٠٠٠	٣,٤٠٠	٢.١
أوكرانيا	٥١.٩٠٠,٠٠٠	٢٧٦,٠٠٠	٥.٣
روسيا	١٤٩,٠٠٠,٠٠٠	٤١٥,٠٠٠	٢.٨
روسيا البيضاء	١٠,٣٠٠,٠٠٠	٤٦,٠٠٠	٤.٥
لاتفيا	٢,٦٠٠,٠٠٠	١٣.٥٠٠	٥.٢
ليتوانيا	٣.٨٠٠,٠٠٠	٦.٥٠٠	١.٧
مولدافيا	٤.٤٠٠,٠٠٠	١٦,٤٠٠	٤.٤
المجموع	٢٢٣,٦٠٠,٠٠٠	٧٧٩.٨٠٠	٣.٥

أوربا الشرقية:

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان فى الألف
بلغاريا	٨.٩٢٦.٠٠٠	١.٩٠٠	٠.٢
البوسنة والهرسك	٤.٠٠٠.٠٠٠	٣٠٠	٠.١
بولندا	٢٨.٥١٨٠٠	٣.٦٠٠	٠.١
تركيا «بما فى ذلك المناطق الآسيوية»	٥٩.٥٧٧.٠٠٠	١٩.٥٠٠	٠.٣
تشيك	١٠.٣٠٠.٠٠٠	٣.٨٠٠	٠.٤
رومانيا	٢٣.٢٧٧.٠٠٠	١٦.٠٠٠	٠.٧
سلوفاكيا	٥.٣٠٠.٠٠٠	٣.٨٠٠	٠.٧
سلوفينيا	٢.٠٠٠.٠٠٠	١٠٠	—
كرواتيا	٤.١٠٠.٠٠٠	١.٤٠٠	٠.٣
المجر	١٠.٤٩٢.٠٠٠	٥٦.٠٠٠	٥.٣
يوغسلافيا	٩.٨٠٠.٠٠٠	١.٧٠٠	٠.٢
المجموع	١٧٦.٦٩١.٠٠٠	١٠٨.١٠٠	٠.٦
المجموع الكلى لأوربا	٧٨١.١٧٢.٠٠٠	١.٩٢٤.٢٠٠	٢.٥

ويلاحظ أنة يوجد دولتان اثنتان «الولايات المتحدة وإسرائيل» تضمان الغالبية الساحقة ليهود العالم «٧٥%» ولايزيد عدد اليهود عن نصف مليون إلا فى دولة واحدة «فرنسا» وينقص عن النصف مليون فى دولة أخرى «روسيا» وتوجد دولتان «جنوب أفريقيا والبرازيل» يزيد عدد اليهود فى كل منهما على مائة ألف وباستثناء المجر وفيها ٥٦ ألفا والمكسيك ويوجد فيها ٤٠ ألفا لاتوجد دولة واحدة أخرى يزيد فيها عدد اليهود على ٢٥ ألفا ففى بلحيكا يوجد ٨٠٠. ٣١ وفى ايطاليا ٣١ ألف وفى أوروجواى ٨٠٠. ٢٣ وفى رومانيا ١٦.٠٠٠ ويلاحظ أن جميع الدول السابقة تنتمى أيضا إلى التشكيل العرقى الأبيض أو التشكيل الاستيطانى ذى الجذور الغربية.

البيضاء والواقع أن كل هذا يدعم رأينا الخاص بأن اليهود لايوجدون فى العالم بأسره وإنما ضمن تشكيل محدد، وأن وجودهم فى بعض الدول أقرب إلى الغياب ولايمكن أخذه فى
الاعتبار من الناحية الإحصائية، كما هو الشأن مع معظم الاقليات الدينية والاثنية فى العالم .فلايمكن أن نتحدث عن الوجود اليهودي فى الهند حيث لايوجد بها إلا نحو ٥٠٠. ٤ يهودى ، أو الوجود اليهودى فى اليونان حيث يوجد ٨٠٠. ٤ يهودى، أو بولندا وفيها ٣٦٠٠ يهودى، أو النرويج التي فيها ألف يهودى ، أو زاشر التي فيها ٤٠٠ يهودى أو الفلبين وفيها ١٠٠ يهودى أو بورما حيث يوجد عشرون يهوديا وحسب .

وتشكل الجماعات اليهودية قلة سكانية بالنسبة إلى سكان العالم، وهم كذلك أقلية صغيرة قياسا إلى حجم السكان فى الدول التى يوجدون فيها. فأكبر تجمع يهودى فى العالم فى الولايات المتحدة لا يشكل سوى ١٨. ٢% من مجموع السكان البالغ عددهم ٢٥٧.٨٤٠.٠٠٠ حسب إحصاءات عا ١٩٩٢.. وثانى تجمع يهودى فى العالم كان يتركز فى الاتحاد السوفييتى «سابقا» وهو بدوره لايشكل سوى ١.٧% من مجموع السكان البالغ عددهم ٥١٦. ٢٦٧. أما فى كندا، فإن النسبة هى ١.٢٨ % من مجموع السكان البالغ عددهم ٠٠٠. ٢٦٠٧٥٥. وتقل النسبة فى البلاد الأوربية الأخرى، أما فى انجلترا فإنها ٥١. ٠% من مجموع السكان البالغ عددهم ٥٨٠٣٩ وفى روسيا ٠٢٨ % وفى أوكرانيا ٠٥٢% ولايشكل اليهود أغلبية إلا في إسرائيل وحدها، ومع هذا فإنهم يحسون باحساس الأقلية نظرا لوجودهم فى صورة مجتمع استيطانى مئعزل داخل الكثافة السكانية العربية ولخوفهم الدائم من العرب الموجودين فى فلسطين، وبعد ضم الضفة الغربية وقطاع غزة.. وتكاثر العرب فى مقابل تناقص الهجرة ، وتزايد النزوح بين المستوطنين، وعقم الآنثى اليهودية فى إسرائيل، فإن العرب سيصبحون هم الأغلبية العددية لا النفسية وحسب، وهذا مايسمى «مشكلة إسرائيل السكانية» .

ومن الظواهر التي تستحق الإشارة، تركز اليهود فى عواصم والمدن الكبرى، فالواقع أن أكثر من نصف مجموع يهود أمريكا اللاتينية «٢٠٠ ألف» يوجدون فى بوينس أيريس ، وأكثر من نصف يهود جنوب أفريقيا«٦٣ ألفا» يوجدون فى جوهانسبرج، وأكثر من نصف يهود فرنسا»٢٠ ألفا» فى باريس، وأكثر من نصف يهود إنجلترا«٢٠٠ ألف» يوجدون فى منطقة لندن الكبرى، وأكثر

من نصف يهود هولندا «١٥ ألفا» فى أمستردام، وأكثر من نصف يهود كندا فى مونتريال». .
١٠٠ ألف»
وتورنتو «١٧٥ ألفا» وثلث يهود روسيا«٢٠٠ ألف» يوجد فى موسكو. أما فى الولايات المتحدة فهناك خمس مدن تضمم أكثر من نصف يهود الولايات المتحدة إذ تضم نيويورك «الكبرى» ٤٥٠ ألفا ولوس أنجلوس ألفا ٤٩٠ ألفا وفيلادلفيا ٢٥٤ ألفا وشيكاغو «الكبرى» ٣٤٨٠٠٠ وبوسطن ٢٠٨٠٠٠. وواشنطن «الكبرى» ١٦٥ ألفا وميامى " ١٩٩ ألفا والواقع أن توزعهم على كل هذه المدن بدلا من تركزهم فى العاصمة هو انعكاس للتركيبة الفيدرالية للولايات المتحدة. وإذا كان نصف الجماعات اليهودية
يتركز فى كثير من البلاد فى العاصمة، فإن النصف الثانى يوجد موزعا على مدن كبرى أخرى، أي أن الأغلبية العظمى من الجماعات اليهوية توجد فى مراكز حضرية. وهذا أمر متوقع باعتبار أنهم عملوا كجماعة وظيفية وسيطة فى الحضارة الغربية ومهاجرون إلى البلاد التي يوجدون فيها، والمهاجرون يتركزون عادة فى المدن حيث توجد فرص أكبر للعمل، وحيث توجد مراكز التجارة والمال ولم يكن الحال مختلفا فى العالم العربى، فقد تركزت أغلبية يهود لبنان فى بيروت كما تركز يهود مصر فى القاهرة بحى المعادى وحى الظاهر وتتركز المعابد اليهودية بشكل ملحوظ فى العواصم، فمثلا يوجد فى القاهرة والاسكندرية عدة معابد، ويقع أحد معابد القاهرة فى شارع عدلى على مقربة من البنوك ومراكز التجارة. كما يوجد معبد يهودى فى الاسكندرية فى شارع النبى دانيال على مقربة أيضا من بنوك الاسكندرية وعلى بعد خطوات من الغرفة التجارية ومن المعروف أن ١٨ من العاملين بالبورصة فى مصر كانوا من أعضاء الجماعة اليهودية .
وفى تصورنا أن هذا الوضع هو نتيجة للاستعمار الغربى وللهجرة الاشكنازية إلى العالم العربى فى أواخر القرن الماضى والتى وسمت معظم الجماعات اليهودية العربية فى بلاد المتوسط «مصر والجزائر والمغرب ولبنان وسوريا» بميسمها بحيث تحول أعضاء الجماعات إلى جماعات وسيطة للاستعمار الغربى.. كما يلاحظ «مثلا» أن يهود اليمن الذين ظلوا بمنأى عن الهجرة الاشكنازية ، ظلوا محتفظين ببنائهم الطبقى القبلى وبوجودهم فى الجبال. أما فى العراق فإن يهود كردستان الذين ظلوا بمنأى عن هذه التحولات لم يستقروا فى المدن على خلاف بقية أعضاء الجماعة الذين تحولوا إلى جماعة وظيفية وسيطة وتركزوا فى العاصمة وفى أعمال التجارة والمال بالذات ولم

يشذ سكان التجمع الاستيطانى الصهيونى عن هذا الاتجاه. ففى إسرائيل يتكدس ٧٥ من المواطنين فى المدن .. ويلاحظ أن عدد أعضاء الجماعات اليهودية لايزال آخذا فى التناقص وهو مايطلق عليه ظاهرة «موت الشعب اليهودى» . وحينما وصلت الإحصائيات بتعداد اليهود فى العالم عام ١٩٩٥ وجدنا أن الصورة العامة لم تختلف كثيرا عنها عام ١٩٩٢.

وفيما يلى بعض التغيرات الأساسية

الدولة	عام ١٩٩٢	عام ١٩٩٥
الولايات المتحدة	٥.٦٢٠.٠٠٠	٥.٨٠٠.٠٠٠
إسرائيل	٤.٢٤٢.٥٠٠	٤.٤٢٠.٠٠٠
فرنسا	٥٣٠.٠٠٠	٦٠٠.٠٠٠
روسيا	٤١٥.٠٠٠	٦٠٠.٠٠٠
أوكرانيا	٢٧٦.٠٠٠	٤٤٦.٠٠٠
الارجنتين	٢١١.٠٠٠	٢٥٠.٠٠٠
جنوب أفريقيا	١٠٠.٠٠٠	١١٤.٠٠٠
المجر	٥٦.٠٠٠	٨٠.٠٠٠
مولدافيا	١٩.٤٠٠	٤٠.٠٠٠
روسيا البيضاء	٤٦.٠٠٠	٣٤.٠٠٠
أوروجواى	٢٣.٨٠٠	٣٠.٠٠٠
إيران	١٦.٠٠٠	٢٥.٠٠٠
أذربيجان	١٢.٠٠٠	٢٥.٠٠٠

ويمكن القول أن التغيرات فى الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل لايعتد بها، ولكن الزيادات فى البلاد الأخرى تحتاج إلى وقفة، فزيادة ٧٠ ألفا فى فرنسا «أى بنسبة ٢. ١٣%» و٤٠ ألفا فى الارجنتين «بنسبة ٤٨. ١٨%» و ٢٣ ألفا فى المجر «بنسبة ٤٢.٩%» و ١٤ ألفا فى جنوب أفريقيا «بنسبة ١٤%» وتسعة آلاف فى إيران «بنسبة ٥٦%» ليس لها سبب واضح ، فالاتجاه العام فى هذه البلاد فى السنين السابقة كان نحو النقصان لا الزيادة ولعل الزيادات هنا راجعة لاختلاف النماذج الإحصائية بين المصدر الذى استخدمه الكتاب السنوى الأمريكى اليهودى «وهو

من إصدار البعثة اليهودية الأمريكية» ومصدر تعداد عام ١٩٩٥ وهو تقرير أصدره المؤتمر اليهودى العالمى .

ولاندرى هل ينطبق نفس التفسير على الزيادة الملحوظة فى دول الاتحاد السوفييتى سابقا «دول الكومنولث المستقلة وغيرها من الدول» اذ نلاحظ أن يهود روسيا زادوا زيادة كبيرة ١٨٩ ألفا «حوالى ٤٤%» وزاد يهود أوكرانيا ١٧٠ ألفا «حوالى ٦١%» وزاد يهود مولدوفا ٢١ ألفا «أكثر من ١٠٦%» بينما زاد يهود روسيا البيضاء ١٢ ألفا «أى بنسبة ٢٦% وهناك احتمال أن تكون قد بدأت حركة عودة من الدولة الصهيونية كما أن أعدادا كبيرة من يهود لاتفيا واستوانيا وليتوانيا والجمهوريات الإسلامية السابقة وطنوا فيها باعتبارهم عنصرا روسيا استيطانيا، ولعل أعداداً منهم بدأت هى الأخرى فى العودة - وهناك بطبيعة الحال مشكلة من هو اليهودى ومن يضم فى التعداد ومن يستبعد وعلى كل فإن هذه القضايا ليست جوهرية ولاتغير من الأنماط العامة التي درسناها .

هجرة أعضاء الجماعات اليهودية فى العصر الحديث تغير اتجاه هجرة أعضاء الجماعات اليهودية مع بداية عصر النهضة فى أوربا لثلاثة أسباب أساسية

١ - شهد عصر النهضة البدايات الحقيقية للانقلاب التجارى الرأسمالى بما تبعه من اكتشافات جغرافية ومشاريع استعمارية غربية، اسبانية وبرتغالية ثم هولندية وانجليزية. وكانت أسبانيا والبرتغال قد طردتا اليهود من أراضيهما أما هولندا وانجلترا فقد فتحتا أبوابهما لهجرة اليهود نظرا لحاجتهما إلى أيد عاملة ورؤوس أموال وخبرات تجارية، ثم تبعتهما فرنسا.. وقد أدى هذا الوضع إلى تدفق المهاجرين اليهود إلى هذه البلاد وإلى مستعمراتها فيما بعدد

٢ - كانت الدولة العثمانية قد بدأت تدخل مرحلة الجمود التي أدت إلى سقوطها فى نهاية الأمر، ولم تعد قادرة على استيعاب المزيد من اليهود

٣- وفى تلك المرحلة، كان معظم يهود أوربا مركزين فى بولندا التي شهدت ثورة الزعيم الشعبى الأوكرانى بوجدان شميلنكى عام ١٦٤٨ والذى قاد ثورة الفلاحين الأوكرانيين ضد الاحتلال البولندي وضد النبلاء البولنديين " النشلاختا" المستفيدين من هذا الاحتلال وضد عمال النبلاء وممثليهم من يهود الأرندا الذين كانوا يقومون بجمع الضرائب وتوقيع العقوبات على الفلاحين. وقد هزت هذه الثورة جذور الدولة البولندية على وجه الخصوص ثم تبع ذلك غزو السويد وروسيا

لها وقد أدى تزامن هذه الأحداث «طرد اليهود السفارد من شبه جزيرة أيبريا، ثم اهتزاز الأساس الاقتصادى والسياسى لليهود الأشكناز فى بولندا مع فتح أبواب الهجرة إلى أوربا الغربية ، ودخول الدولة العثمانية فى طور الجمود» إلى تغيير مسار هجرة أعضاء الجماعات اليهودية فى أوربا، وظهور النمط الحديث أي هجرة الهيود من البلاد المتخلفة فى شرق أوربا إلى البلاد المتقدمة فى وسطها وغربها وإلى العالم الجديد. والهجرة اليهودية فى العصر الحديث هى أساسا جزء من حر كة الاستعمار الاستيطانى التى بدأت فى القرن السادس عشر، خصوصا التشكيل الآنجلوساكسونى «بعد بداية قصيرة مع الاستعمار الاسبانى ثم الهولندى» وما الهجرة الصهيونية إلا تعبير عن هذا النمط العام ومع هذا ظلت الولايات المتحدة هى نقطة الجاذبية الأساسية للهجرة اليهودية من البدايه حنى الوقت الراهن للأسباب التالية :

١- تشكل الولايات المتحدة أهم وأنجح تجربة استيطانية غربية وقد اجتذبت ثم استوعبت أعدادا كبيرة من المهاجرين من أوربا بلغت أكثر من ٨٠%

٢ - الولايات المتحدة دولة علمانية لم تعرف أية تقاليد أو حتى أية رموز دينية إلا لفترة وجيزة للغاية من تاريخها، كما أنها نجحت فى إقامة مؤسسات علمانية لاستيعاب وصهر المهاجرين و«أمركتهم» وفتحت أمامهم فرصة الانتماء الثقافى الكامل لوطنهم الجديد مما زاد من جاذبيتها وذلك على عكس أمريكا اللاتينية التي احتفظت بكاثوليكيتها وبالتالى استبعدت البروتستانت واليهود

٣ - كان اليهود يشكلون جماعة وظيفية مالية تعمل بالتجارة والمال، وبالتالى لم تكن بينهم أعداد كبيرة من العمال أو الفلاحين، والمجتمع الأمريكى هو مجتمع الاقتصاد الحر الذى يشكل القطاع التجارى والمالى أكبر قطاعاته والذى سادت فيه القيم التجارية الموضوعية ومن ثم فهو مجتمع له جاذبية خاصة بالنسبة إلى المهاجر اليهودى .

وقد تنبأ المؤرخ الروسى اليهودى دبنوف بأن مسار الهجرة اليهودية سيكون إلى الولايات المتحدة، وطالب بأن يتم تقنين العملية وتنظيمها ويمكن القول بقدر من التبسيط غير المخل أن هجرة أعضاء الجماعات اليهودية تدور حول قطبين أساسيين هما شرق أوربا «روسيا - بولندا» كقوة طاردة وكمصدر للمادة البشرية، والولايات المتحدة كقوة جاذبة، وقد كان النمط الأساسى القديم للهجرة اليهودية هو تحرك أعضاء الجماعات داخل أطر الإمبراطوريات الكبرى «الفارسية أو الرومانية أو الإسلامية» أما فى العصر

الحديث فقد كانت هناك إمبراطوريتان أو قوتان عظميان تحددان من خلال سياستهما حركة هجرة أعضاء الجماعة اليهودية ، وقد تطور الأمر بعض الشيء بعد ذلك فى منتصف القرن العشرين .
ولكن هناك مصادر أخرى ثانوية طاردة للمادة البشرية مثل أوربا الشرقية أو أمريكا اللاتينية أو جنوب أفريقيا أو بقايا يهود الشرق والعالم الإسلامى، كما أن هناك مناطق جذب ثانوية أخرى مثل كندا وأستراليا ونيوزيلندا وبعض بلاد أوربا إلا أن النمط الأساسى الذي أشرنا إليه ظل سائدا وتمثل إسرائيل نقلة مبهمة فهى مصدر طرد حيث يبلغ عدد النازحين منها بين ٧٠٠ ألف ومليون، كما أنها مصدر جذب ليهود البلاد العربية والشرق .حيث إنها تحقق حراكا اجتماعيا كما تمثل محطة انتقال لهؤلا، اليهود الذين لايمكنهم الوصول إلى الولايات المتحدة أو أولئك الذين لاتوجد عندهم الكفاءات المطلوبة للعمل فيها ويمكن تقسيم هجرة أعضاء الجماعات اليهودية فى العصر الحديث إلى المراحل التالية.

أ - المرحلة الأولى : ابتداء من القرن السادس عشر حتى بداية القرن التاسع عشر . وهى مرحلة البدايات الأولى للثورة التجارية الرأسمالية الصناعية فى أوربا ، وهذه هى الفترة التي شهدت توطين السفارد من يهود المارانو فى هولندا وفرنسا، وانجلترا، كما شهدت بدايات الهجرة الاستيطانية اليهودية إلى العالم الجديد. وكانت الهجرة تتبع النمط التالى: تهاجر مجموعة صغيرة من السفارد «عادة من كبار الممولين وعائلاتهم» تلحق بهم أعداد ضخمة من الاشكناز، كما حدث فى أمستردام بعد استقلالها عن أسبانيا وكما حدث فى انجلترا وفرنسا ويعض مدن ألمانيا، وقد زاد عدد أعضاء الجماعة اليهودية فى أمستردام من ٢٠٠ سفاردى فى عام ١٦٩٠ إلى ٢٤٠٠ سفاردى و ٢١ ألف اشكنازى فى عام ١٧٩٥. أما لندن، فقد كان يوجد فيها فى عام ١٦٩٥ نحو ٤٥٨ سفارديا و ٢٠٣ من الاشكناز، ومع حلول عام ١٧٢٠ زاد عدد الاشكناز على عدد السفارد وفى عام ١٨٠٠ كان يوجد ألفا سفاردى ، وحسب بين العشرين ألف يهودى. ولم يستوطن أي عدد يذكر من اليهود فى فلسطين فى تلك المرحلة

ب- المرحلة الثانية، من القرن التاسع عشر حتى عام١٨٨٠وهى المرحلة التي وقعت فيها الحرب النابليونية والاضطرابات السياسية التي أعقبتها الأمر الذى تسبب فى هجرة بعض الجماعات اليهودية من ألمانيا وبوهيميا والنمسا إلى فرنسا وانجلترا والولايات المتحدة وأستراليا وغيرها.
ولم يزد عدد المهاجرين اليهود إلى خارج القارة الأوربية على ٢٠٠.٠٠٠. ويمكن تفسير ذلك بعدة

أسباب من بينها أن الأنفجارة السكانية التي حدثت بين يهود اليديشية فى شرق أوربا، والتى أدت إلى تزايد أعدادهم بين عامى ١٨٠٠ و ١٩٣٣ بنحو ستة أضعاف، لم يكن قد ظهر أثرها بعد، كما أنها وصلت إلى ذروتها، بعد عام ١٨٨٠، وفضلا عن ذلك كان معظم يهود العالم مركزين فى شرق أوربا وروسيا وبولندا التي كان قد تم ضمها إلى روسيا، ولم تكن معدلات العلمنة والتحديث قد ازدادت بينهم بعد، مما كان يعني أنهم لايزالون جماعة متماسكة تصعب على أعضائها الحركة، كما كان كثير من اليهود لايزالون يلعبون دورهم الاقتصادى التقليدى كجماعة وظيفية وحتى عندما تزايدت عمليات التحديث والعلمنة فى روسيا، وتركت تلك العملية أثرها على الجماعة اليهودية التي بدأت تفقد شيئا من تماسكها وبدأ يختفى كثير من مؤسساتها التقليدية التى تربط بين الفرد والجماعة مثل الأسرة والدين فإن هذا لم يتسبب في أي هجرة خارج أوربا إذ لم تكن محأولات التحديث فى الإمبراطورية الروسية قد كابدت من التعثر بعد- وقد كان الاقتصاد الروسى قادرا على استيعاب اليهود الذين كانوا يتزايدون ويتركون قراهم وأماكن إقامتهم الأصلية، ولذا، فقد كانت هجرة اليهود داخلية، من المناطق الكثيفة سكانيا، فى منطقة الاستيطان إلى روسيا الجديدة على شواطىء البحر الأسود كما هاجرت أعداد صغيرة إلى بعض الدول الأوربية والولايات المتحدة .
وشهدت هذه المرحلة هجرة يهود المناطق البولندية التي ضمتها ألمانيا «١٧٧٢ - ١٨١٥» وفى بروسيا بالذات، كان يوجد فى عام ١٨٣٧نحو ٢٦٤. ١٤٥ يهودا ٧٠ % منهم حوالى «١٥٢.
١٠١» كانوا فى المناطق البولندية، أي أن أغلبية يهود بروسيا كانوا مركزين هناك. ولكن مع عام ١٨٧١، تناقص عددهم عن طريق الهجرة إلى ألمانيا ذاتها، وأصبحت نسبة اليهود فى المناطق البولندية ٨. ٣١% ثم انخفضت فى عام ١٨٩٠ إلى ٨ ٢٤% وإلى ٤.١٧% فى عام ١٩١٠. وقد اتجه هؤلاء اليهود إلى برلين التي
ارتفع عدد اليهود فيها من ٤٨٩. ٤٧ فى عام ١٨٧١ إلى ١٤١. ١٨١ فى عام ١٩٢٥، وقد ساهم هذا الارتفاع فى تغذية الدعاية العنصرية النازية بشأن تكاثر اليهود والخطر اليهودى ومحاولة سيطرة اليهود على كل شىء

جـ - المرحلة الثالثة. من عام ١٨٨١ حتى عام ١٩٣٩ وهى مرحلة الهجرة الكبرى اليهودية وغير اليهودية، والتى بدأت فى عام ١٨٨١ مع تعثر التحديث فى روسيا وتزايد

العنصرية فى كل أوربا وانتهت فى عام ١٩٣٩ بصدور قوانين عام ١٩٢٤، التي حدث من هجرة يهود شرق أوربا، ثم بالكساد الاقتصادى وإغلاق أبواب الهجرة من روسيا تماما. ووفقا لإحصائيات الموسوعة اليهودية، بلغ عدد المهاجرين فى هذه الفترة أربعة ملايين، فى حين يذهب أرثر روبين إلى أن العدد أكبر من ذلك، فهو يرى أنه فى الفترة من عام ١٨٨١ إلى عام ١٩٢. هاجر نحو ٩٧٥.٠٠٠. ٣ فإذا أضفنا إلى ذلك وفقا لليستشنكى الرقم ٥٠٧.٨٤٥ وهو عدد الذين هاجروا من عام ١٩٣١ إلى عام ١٩٣٩، فإن العدد الكلى يصبح ٨٤٥ ٤٢. ٤ ويجب أن نضيف إلى هذه الهجرة حركة اليهود داخل الامبراطوريات العظمى فى أوربا، الأمر الذى قد يصل بالعدد خمسة ملايين وقد أخذت الحركة داخل الإمبراطورية النمساوية اتجاهها من الشرق «جاليشيا وبكوفينا وبوزنان» إلى الغرب وحدث نفس الشيء فى ألمانيا، أما فى روسيا فقد اتجهت الهجرة نحو الجنوب إلى أوديسا ومناطق البحر الأسود، وكان عدد اليهود الذين انتقلوا فى هذه الفترة من بلد أوربى إلى آخر هو ٣٥٠ ألفا ، ويرى روبين أنهم ٤٩٠ ألفا كما شارك فى حركة الهجرة من القرية إلى المدبنة، فزاد عدد يهود فيينا «بلدة تيودور هرتزل مؤسس الحركة الصسهدونية» على سبيل المثال من ستة آلاف فى عام ١٨٥٧ إلى ٩٩ ألفا فى عام ١٨٩٠ وإلى ١٧٥ فى عام ١٩١٠ ، وهى زيادة تمت أساسا عن طريق الهجرة حيث أن معدلات الزيادة الطبيعية كانت أخذة آنذاك فى التناقص وربما يكون الدافع الأكبر وراء الهجرة فى هذه الفترة هو تعثر محأولات التحديث فى روسيا ثم توقفها تقريبا، وهو ما انعكس فى شكل الاضطهاد الروسى القيصرضد جميع الأقليات في الإمبراطورية. لذلك هاجرت أعداد كبيرة من يهود الإمبراطورية الروسية إلى خارجها بحثا عن مجالات جديدة للحراك الاجتماعي وللحصول على الحقوق المدنية والسياسية، وكانت الأغلبية العظمى من المهاجرين اليهود من بين يهود اليديشية، ويهود روسيا على وجه الخصوص حيث كانوا يشكلون ما بين ٧٠%و ٨٠% من جملة يهود العالم، وقد كان عددهم نحو عشرة ملايين ، وهو مايعنى أن نصفهم تقريبا، أي واحد من كل اثنين، كان فى حالة حركة وهجرة وانتقال فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين، وهذه نسبة عالية للغاية ولاشك أنها اسهمت فى تفتيت كثير من المؤسسات والروابط والأواصر، ومع أن نسبة الهجرة بين يهود اليديشية كانت أعلى من نسبتها بين

الإيطاليين فإنها كانت أقل من نسبتها بين الأيرلنديين وقد كان عدد الأيرلنديين فى عام ١٨٣٠ ثمانية ملايين يشكلون نصف سكان انجلترا، وقد هاجر منهم أربعة ملايين بين عامى ١٨٣٠، ١٩٠٠وهاجر معظم اليهود فى الفترة من عام ١٨٨١، إلى عام ١٩١٤ خصوصا الأربعة عشر عاما الأخيرة منها. وتذكر الموسوعة اليهودية أن عدد المهاجرين بلغ ٢.٧٥٠.٠٠٠ فإذا انقصنا من هذا العدد حوالى ٢٥٠ ألفا هاجروا داخل أوربا ، وذلك على اعتبار أن عدد المهاجرين فى الفترة من ١٨٨١ حتى ١٩٣٥ هو حوالى ٤٩٠ ألفا، يكون عدد المهاجرين إلى خارج القارة هو ٠٠. ٠٠٠.٥٥٠. ٢ بمعدل هجرة سنوية تصل إلى ١٣٥ ألفا وتعد سئة الذروة هى ١٩٠٥- ١٩٠٦ حيث هاجر ما بين ٢٠٠ و.٢٥ ألفا فى ذلك العام وحده. لكن الهجرة توقفت فى أثناء الحرب وعثد فتحها فى عام ١٩٠٧ تدفق السيل مرة أخرى إذ هاجر فى ذلك العام وحده ١٤١ ألفا ثم صدر أول قانون لتحديد الهجرة فى العام التالى، الأمر الذى أدى إلى تغيير الصورة وإذا كانت روسيا هى نقطة الطرد الكبرى فقد كانت الولايات المتحدة نقطة الجذب، الكبرى فى أواخر القرن التاسع عشر ، وهى الفترة التي أحرزت فيها الرأسمالية الأمريكية تقدمها الضخم بعد أن هزمت الجنوب وفتحت أسواقه، وفى هذه الفترة، بدأت الرأسمالية الأمريكية تجربتها الإمبريالية فى أمريكا اللاتينية والفلبين حيث كانت فى حاجة ماسة إلى الأيدى العاملة التي لم يكن من الممكن تجنيدها من خلال الزيادة الطبيعية وقد استوعبت الولايات المتحدة بنحو ٨٥% من المهاجرين اليهود بل واستوعبت نفس النسبة تقريبا من جملة المهاجرين فى العالم. ولاتوجد سجلات بأعداد المهاجرين اليهود إلى الولايات المتحدة إلا ابتداء

من عا م ١٨٩٩ وقد هاجر من روسيا في خلال ستة عشر عاما «١٨٩٩- ١٩٢٤» نحو مليون ونصف المليون يهودى. وفيمايلى جدول بأعداد اليهود الدين هاجروا إلى الولايات المتحدة من روسيا وغيرها فى الفترة من عام ١٨٩٩ إلى عام ١٩١٤

السنة	عدد المهاجرين	السنة	عدد المهاجرين
١٨٩٩	٣٧.٤١٥	١٩٠٧	١٤٩.١٨٢
١٩٠٠	٦٠.٧٦٤	١٩٠٨	١٠٣.٣٨٧
١٩٠١	٨٥.٩٨	١٩٠٩	٥٧,٥٥١
١٩٠٢	٥٧,٦٨٨	١٩١٠	٨٤,٢٦٠
١٩٠٣	٧٦.٢٠٣	١٩١١	٩١,٢٢٣
١٩٠٤	١٠٦,٢٣٦	١٩١٢	٨٠,٥٩٥
١٩٠٥	١٢٩,٩٠٠	١٩١٣	١٠١,٢٢٠
١٩٠٦	١٥٣.٧٤٨	١٩١٤	١٣٨,٠٥١

ليكون إجمالى عدد المهاجرين هو ٥١٢٠٦٣١ .١. ويعد عام ١٩٠٦ عام الذروة بالنسبة إلى الهجرة إلى الولايات المتحدة ويبلغ متوسط عدد المهاجرين سنويا ٩٣ ألفا وقد استقر كل هؤلاء المهاجرين فى الولايات المتحدة بشكل دائم، ولم يهاجر منهم سوى نسبة ضئيلة تبلغ ٨ فى مقابل ٣٠.٧٦% من بقية الجماعات المهاجرة، وكانت نسبة الأيرلنديين العائدين أقل اذ كانت لاتزيد على ٧ %وكان المهاجر اليهودى يصل إلى الولايات المتحدة ولديه النية فى الاستقرار الدائم، وليس ادخال بعض الأمور ثم العودة إلى الوطن الأم، ومن ثم فقد كان يحضر معه أسرته، وكانت توجد نسبة عالية من النساء والأطفال فكانت نحو ٤٤% من جملة المهاجرين اليهود من الإناث فى مقابل ٧. ٣١% بالنسبة إلى الجماعات المهاجرة الأخرى وكان ٢٤% من المهاجرين اليهود أطفالا تحت سن الثالثة عشرة أما فى الجماعات الأخرى فكانت النسبة ١٢.٤% وكان يوجد بين المهاجرين اليهود نسية عالية من العمال الصناعيين تصل إلى ٦٦% من الأجراء على عكس الإيطاليين، والأيرلندييين الذين كانوا من أصول فلاحية ، وبحسب احصائيات الهجرة الأمريكية «١٨٩٩ ١٩١٤» كان المهاجرون اليهود يشكلون ٣١% من جملة العمال الصناعيين ، وكانوا يشكلون أحيانا الأغلبية المطلقة فى بعض الفروع مثل صناعة الملابس.. وكان عدد العمال الزراعيين بين اليهود هو ٦. ٢ مقابل ١ ٢٨% بالنسبة إلى جملة المهاجرين وكان عدد العاملين فى صناعة الملابس ٦. ٣٩% وفى الصناعات الأخرى ٢٦% «أى ٦. ٦٥% من الأجراء» فى مقابل ٨. ١٧% بين غير اليهود. كما أن ٢. ٩% من المهاجرين اليهود كانوا يعملون فى التجارة

والنقل مقابل ٧ ٦% من جملة المهاجرين وقد ساهم ذلك فى سرعة اندماجهم فى المجتمع وتحقيقهم حراكا اجتماعيا أعلى مما حققته كثير من جماعات المهاجرين الأخرى، وهذا هو الذى ساهم نهاية الأمر فى «أمركتهم» الكاملة وفى تركزهم فى صناعات بعينها دون غيرها. وكان التركيب الاثنى للمهاجرين اليهود فى خلال الفترة بين عامى ١٨٩٩ و ١٩١٤ كما يلى حسب بلد الأصل

روسيا	٧١.٧٪	بريطانيا العظمى	٤.٠٪
الإمبراطورية النمساوية والمجرية	١٦.٢٪	كندا	١.٢٪
		ألمانيا	٠.٧٪
رومانيا	٤.٢٪	بلاد أخرى	٢.٠٪

ولكن معظم اليهود الذين جاءوا من خارج روسيا هم من يهود اليديشية أيضا. وقد توقفت الهجرة فى أثناء الحرب العالمية الأولى، ولكنها فتحت أبوابها مرة أخرى فى عام ١٩١٤، وكان عدد المهاجرين فى البداية ضئيلا ثم أخذ فى الازدياد إلى أن وصل إلى الذروة فى عام ١٩٢١ ثم انخفض فى أعوام ١٩٢٢ و١٩٢٣ و١٩٢٤ بسبب نظام النصاب، وفيمايلى بيان بأعداد المهاجرين

السنة	عدد المهاجرين	السنة	عدد المهاجرين
١٩١٥	٢٦.٤٩٧	١٩٢٠	١٤.٢٩٢
١٩١٦	١٥.١٠٨	١٩٢١	١١٩.٠٣٦
١٩١٧	١٧.٣٤٢	١٩٢٢	٥٣.٥٢٤
١٩١٨	٣.٧٦٢	١٩٢٣	٤٩.٧١٩
١٩١٩	٢.٠٥٥	١٩٢٤	٤٩.٩٨٩

ليكون إجمالى عدد المهاجرين هو ٣٢٤ . ٣٥٢ ولنا أن نلاحظ أن هذه الفترة الثانية هى فترة ظهور الصهيونية ونشاطها أيضا ولابد أن ندرك أن حركة اعضاء الجماعات اليهودية الضخمة كانت مصدر قلق الدول الغربية، لخوفها على أمنها الداخلى، وليهود الغرب المندمجين ، الذين كان وصول يهود الشرق يهدد مكانتهم الاجتماعية وينبع تأييد الدول الغربية وأثرياء اليهود المندمجين

للمشروع الصهيونى من مخاوفهم هذه. ومن هنا كان تبنيهم لما نسميه «الصهيوئية التوطنية»
ويمكن أن نضرب مثلا علي ذلك بانجلترا التي اتجه إليها نحو ٢١٠ آلاف من المهاجرين اليهود فى الفترة من عام ١٨٨١ إلى عام ١٩٣٥. وقد كان لوصولهم أثره فى إثارة قلق السلطات البريطانية.
وظهرت المحاولات الرامية إلى تحويل تيار الهجرة اليهودية بعيدأ عن إنجلترا ابتداء بمشروع شرق أفريقيا لإنشاء دولة صهيونية هناك ، مرورا بقانون الأجانب فى عام ١٩٠٦ للحد من دخول اليهود إلى إنجلترا (وهو المشروع الذى كان بلفور من أكبر المدافعين عنه»، وانتهاء بوعد بلفور الذى حول فلسطين إلى أرض يلقى فيها الفائض البشرى اليهودى - كما
كان يطلق على المهاجرين اليهود آنذاك . وام يتجه إلى ألمانيا فى نفس الفترة سوى مائة ألف يهودى ، ولكن هذا لايتضمن اليهود الذين هاجروا من المقاطعات البولندية
وهم من يهود اليديشية غير المندمجين وبالتالى، قام النازيون بالدعاية ضد اليهود وببث السموم عن خطر التكاثر اليهودى والهيمنة اليهودية فى وقت كانت أعداد اليهود أخذة فى التناقص الفعلى، وإذا كان بلفور قد حل المسألة اليهودية فى انجلترا بالتخلص من اليهود عن طريق إرسالهم إلى فلسطين ، فإن هذا الحل لم يكن متاحا لهتلر لعدم وجود مستعمرات لدى ألمانيا ولهذا تخلص متهم بإبادتهم ونلاحظ أن عدد الهاجرين إلى فلسطين كان فى بداية الفترة ٨٠٦ ١، وبلغ ٨.١٧٥ فى عام ١٩٢٣، أي بعد فتح أبواب
الهجرة وإنشاء المؤسسات الصهيونية الاستيطانية، ثم قفز العدد إلى ٨٩٢. ١٣ فى عام ١٩٢٤، وشهدت الفترة من عام ١٩٢٥ إلى عام ١٩٣٣ احتدام الأزمة الاقتصادية الرأسمالية العالمية، وهو أدى إلى خوف كثير من الدول من الأيدى العاملة المهاجرة لأنها قد تفاقم من ظروف البطالة فيها، فأخذت الدول تغلق أبواب الهجرة وتسمح بدخول المهاجرين بمقدار ماتسمح به مقدرتها
الاستيعابية، ومن هذه البلاد كندا والأرجنتين والبرازيل وجنوب أفريقيا وأستراليا، وقد أدى تصاعد المقاومة العربية فى فلسطين إلى
الحد من الهجرة الاستيطانية، ولكن فلسطين ظلت مع هذا مفتوحة الأبواب أمام الهجرة، ولعل أكبر مثل على محاولة الدول الغربية للحد من الهجرة الأجنبية هو الولايات المتحدة التي أصدرت أولا قانون النصاب فى عام ١٩٢٢ وأعقبته بقانون جونسون فى عام ١٩٢٤ ٠ حيث لم بكن يسمح - بحسب هذا القانون إلا بهجرة ما يساوى نسبة ٢% من عدد أعضاء كل جماعة قومية تعيش فى

الولايات المتحدة وفق احصاء عام ١٨٩٠ وقد عرفت المجموعة القومية بنسبتها إلى البلد الأم وليس بنسبتها إلى الانتماء الديني أو الإثنى. وكان العدد المسموح له بالهجرة من شرق أوربا وروسيا هو ٢٤١. ١٠ فى مقابل نحو ٥٠ ألفا فى عام ١٩٢٤ ٧٤٨. ١٥٢ فى عام ١٩٠٦ وكانت أعداد المهاجرين فى تلك الفترة كما يلى.

السنة	عدد المهاجرين	السنة	عدد المهاجرين
١٩٢٥	١٠.٢٩٢	١٩٣٠	١١.٥٢٦
١٩٢٦	١٠.٢٦٨	١٩٣١	١١٩.٦٩٢
١٩٢٧	١١.٤٨٣	١٩٣٢	٢.٧٧٥
١٩٢٨	١١.٦٣٩	١٩٣٣	٢.٣٧٢
١٩٢٩	١٢.٤٧٩		

أى أن الهجرة بنغت الحد الأقصى المسموح به حتى عام ١٩٢٠ وهكذا فبعد أن كانت الولايات المتحدة تستوعب ٨٥% من جملة المهاجرين اليهود فى الفترة من عام ١٨٨١ إلى عام ١٩١٤ انخفضت النسبة إلى ٢٥% في الفترة من عام ١٩٢٦ إلى ١٩٣٠ . وقد أغلقت كثير من البلاد أبوابها، وكما يقول روبين، أصبحت معظم البلاد مغلقة أمام المهاجرين فى عام ١٩٣٣، ولم يبق أمامهم سوى فلسطين (المستعمرة)، بمعنى أن الدول الغربية خلقت صهيونية بنيوية أي بينة قانونية وظروفا موضوعية تفرض على اليهود الهجرة إلى فلسطين شاءوا أم أبوا. وبالفعل، قفز عدد المهاجرين الاستيطانيين من ٤٠٠٠ فى عام ١٩٣١ إلى ٥٥٣ ١٢ فى عام ١٩٣٢ وإلى ٣٧٠٣٣٧ فى عام ١٩٣٣ ولذا يمكننا القول إن عنصر الطرد من الولايات المتحدة وليس الجذب إلى أرض الميعاد هو الذى حدد مسار الهجرة ومع هذا يلاحظ أنه فى الفترة من عام ١٩٢٦ إلى عام ١٩٣٠، حيث كانت أبواب أمريكا اللاتيئية أكثر انفتاحا، هاجر إليها ٣٨٧ ٧٢ من مجموع المهاجرين اليهود البالغ عددهم ٩٠٨ ١٧٢ (أى ٤٢%) ولم يهاجر فى نفس الفترة سوى ١٧٩. ١٠ إلى فلسطين وعلى الرغم من تباكى الدول الغربية على مصير اليهود ، فإن معظمها أوصدت أبوابها دونهم. كما أن المنظمات الصهيونية كانت تؤيد هذا الموقف انطلاقا من العقيدة الصهيونية التي تدعو إلى توطين اليهود فى فلسطين - وفلسطين فقط ومن هنا، كانت الجهود المكثفة

للصهاينة من أجل إفشال مؤتمر إفيان لحل مشكلة اللاجئين والمهاجرين ورفض أية عروض لتوطين اليهود خارج فلسطين لخلق ماسميناه «الصهيونية البنيوية» وفى الفترة من عام ١٩٣٣ حتى عام ١٩٤٨، والتى يمكن أن تسمى المرحلة النازية ، بلغ عدد المهاجرين من ألمانيا والبلاد التي يهيمن عليها النازيون ، والمهاجرون من كل أوربا ٥٤٠ ألفا، خلاف عشرات الألوف من اليهود الذين هجرهم الاتحاد السوفيتى إبان الحرب لإنقاذهم وعشرات الألوف الذين لجأوا إلى الاتحاد السوفييتى فرارا من النازى وقد هاجر ٢٥٠ ألفأ (أى ٤٦%) منهم إلى فلسطين بسبب سياسة إغلاق الأبواب، وهاجر الباقون وهم ٢٩٠ ألفا إلى بلاد أخرى أهمها الولايات المتحدة التي هاجر إليها ١١٠ آلاف (أى ٢٠%) وهاجر فى الفترة من عام ١٩٤٠ إلى عام ١٩٤٨ نحو ٣٠٠ ألف يهودى، منهم ١٢٠ ألفأ (أى٤٠%) إلى فلسطين والباقون .

هم. ١٨ ألفا (أى ٦٠%) . هاجروا إلى بلاد أخرتى أهمها الولايات المتحدة التي هاجر إليها ١٢٥ ألفا (أى ٤٢%) وهكذا أصبحت الولايات المتحدة، مرة أخرى، بلاد الجذب الأكثر، حتى فى أثناء سنى الحرب والإبادة النازية ويمكننا أن نقول أن المستوطن الصهيونى لم يشكل ملجأ ليهود أوربا، فمن مجموع ٧٥٠ألف مهاجر (ويمكن أن نضيف إليهم مئات الألوف من المهاجرين إلى الاتحاد السوفييتى) لم يهاجر إلى فلسطين سوى ٣٧٠ ألفا أي أنه على الرغم من شراسة الصهيونية البنيوية ولا إنسانيتها، فإن مسار الهجرة لم يتجه إلى فلسطين . وفيما يلى جدول بعدد المهاجرين ونسبهم المئوية - حسب الموسوعة اليهودية - بين عامى ١٨٨١ و١٩٤٨

جهة الهجرة	عدد المهاجرين ١٨٨١-١٩١٤	النسبة ٪	عدد المهاجرين ١٩١٥ - ١٩٤٨	النسبة ٪
الولايات المتحدة	٢,٠٤٠,٠٠٠	٨٥٪	٦٥٠,٠٠٠	٤١٪
كندا	١٠٥,٠٠٠	٤٪	٦٠,٠٠٠	٤٪
الأرجنتين	١١٣,٠٠٠	٥٪	١١٥,٠٠٠	٧٪
بقية أمريكا اللاتينية	١٤,٠٠٠	٠,٦٪	١٤٠,٠٠٠	٩٪
جنوب أفريقيا	٤٣,٠٠٠	٢٪	٢٥,٠٠٠	١,٦٪
فلسطين	٧٠,٠٠٠	٣٪	٤٨٥,٠٠٠	٣٠٪
بلاد أخرى	١٥,٠٠٠	٠,٦٪	١٢٥,٠٠٠	٨٪
المجموع	٢,٤٠٠,٠٠٠		١,٦٠٠,٠٠٠	

والجدول هنا يبين أن الولايات المتحدة هي بلد الهجرة بلا منازع أو منافس وتشغل الأرجنتين و كندا المرتبتين الثانية والثالثة، ولا تأتى فلسطين إلا فى المرتبة الثالثة - وهى مرتبة ثالثة تجاوزا لأن مجموع عدد المهاجرين إليها أقل بكثير من مجموع عدد المهاجرين إلى بلاد الاستيطان الأخرى. أما فى الفترة من ١٩١٥ إلى ١٩٤٨، فإن الولايات المتحدة كانت لاتزال تشغل المرتبة الأولى وكانت فلسطين تشغل مرتبة ثانية قريبة من المرتبة الأولى ومن الطريف أن مجموع عدد المهاجرين إلى أمريكا اللاتينية وكندا

فى خلال الفترتين هو تقريبا نفس عدد المهاجرين إلى فلسطين - ولكن أحد المصادر الأخرى يذهب إلى أن عدد المهاجرين إلى أمريكا اللاتينية وحدها، من عام ١٨٨١ " حتى عام ١٩٤٨، يعادل مجموع عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين فى ذات الفترة وإذا استبعدنا الولايات المتحدة، وعقدنا مقارنة بين عدد المهاجرين إلى فلسطين من جهة وبقية بلاد العالم من جهة أخرى، لوجدنا أن عدد المهاجرين إلى فلسطين هو ٥٥٥ ألفا فى مقابل ٦٨٢ ألفا هاجروا إلى بقية بلاد العالم، أي أن عدد

المهاجرين اليهود إلى فلسطين أقل من عدد المهاجرين إلى بقية البلاد وحتى فى الفترة من عام ١٩١٥ إلى عام ١٩٤٨، وهى الفترة التي شهدت قمة النشاط الصهيونى، حيث فتحت حكومة الانتداب أبواب فلسطين
للهجرة الاستيطانية، وحيث أغلقت بلاد العالم الحر أبوابها دون المهاجرين اليهود وغير اليهود، كان عدد المهاجرين إلى فلسطين ٤٨٥ ألفا فى مقابل ٤٦٥ ألفا للبلاد الأخرى فيما عدا الولايات المتحدة وكل هذه الإحصائيات تبين أن فلسطين ليست نقطة الجذب اليهودى كما تدعى الأدبيات الصهيونية وأن الحركه الصهيونية لم تحرز نجاحا فيما كانت تهدف إليه ويلاحظ أن كافة البلاد التي يهاجر إليها اليهود هى بلاد شهدت تجارب استعمارية استيطانية أسسها الرجل الأبيض ومن ثم، فإن الهجرة اليهودية ليست ظاهرة يهودية بمقدار ماهى جزء من الظاهرة الاستعمارية الاستيطانية الغربية د) المرحلة الرابعة: منذ عام ١٩٤٨ حتى الوقت الحاضر .
وبانتهاء الأربعينيات، أصبحت الكتلة اليهودية الكبرى ، موجودة فى الولايات المتحدة، مع وجود كتلة أخرى فى أوربا آخذة فى التناقص، ومع وجود أقليات متناثرة فى أنحاء العالم وقد ظهرت الكتلة اليهودية الاستيطانية فى فلسطين، فأصبح هناك قطبان أساسيان يتنازعان هجرة اليهود هما الولايات المتحدة وإسرائيل (فلسطين)، وكلاهما بلد استيطانى يمكن للمهاجر اليهودى أن يحقق فيه الحراك الاجتماعى الذى فشل فى تحقيقه فى بلده ومع هذا، تشكل دول أخرى مثل أستراليا وفرنسا جاذبية خاصة بالنسبة إلى بعض المهاجرين اليهود ويمكن أن نضيف بعدا أخر يساعد فى توجه أعضاء الجماعات اليهودية إلى الولايات المتحدة وإسرائيل (فلسطين) ألا وهو الميراث الاقتصادى للجماعات اليهودية كجماعة وظيفية تركز أعضاؤها فى قطاعات المال والتجارة. والواقع أن هذا يعنى تأثرهم السلبى بالثورات القومية أو الاشتراكية التى تستولى على هذه القطاعات
فتؤممها، أو تحاول صبغها بصبغة قومية، أو تتدخل فيها بما يقلل من فرص الحراك أمام أعضاء الجماعة اليهودية. ويمكننا فى واقع الأمر أن نفسر حركة هجرة أعضاء الجماعات اليهودية فى العصر الحديث بكل تناقضاتها من منظور هذين العنصرين (الحراك الاجتماعى وميراث الجماعة الوظيفية الوسيطة) باعتبارها هجرة إلى بلاد الوفرة والاقتصاد الحر والاستقرار السياسي من بلاد الاقتصاد الاشتراكى والفقر والثورات القومية الاشتراكية .

١ - فمثلا يمكن تفسير الهجرة من الاتحاد السوفيتى على أنها تعبير عن ضيق يهود الاتحاد السوفيتى بالنظام الاشتراكى الذى يضيق الخناق على القطاع التجارى وفى نفس الإطار يمكن تفسير الظاهرة الثى تسمى فى المصطلح الصهيونى «التساقط» أى خروج اليهود من الاتحاد السوفيتى بزعم الهجرة إلى إسرائيل ثم تغيير الاتجاه والذهاب إلى بلد أخر هو الولايات المتحدة فى العادة. فهم يفضلون الهجرة إلى الولايات المتحدة حيث يمكنهم تحقيق معدلات عالية من الحراك الاجتماعى، فى حين لاتشكل إسرائيل أية جاذيية بالنسبة إليهم وقد هاجر يهود جورجيا بأعداد كبيرة إلى إسرائيل فحققت مثل هذه الهجرة لهم قسطا من الحراك الاجتماعى. خصوصا وأن مؤهلاتهم لم تكن عالية، بينما نجد أن
نسبة التساقط بين يهود أوكرانيا تصل إلى ٩٠% لأن مستواهم المعيشي مرتفع وإذا نجح يلتسين فى تحقيق الاصلاحات الاقتصادية والأنفتاح التجارى الذى يطمح إليه، فاننا
نتصور أن أعداد المهاجرين ستتناقص لأن فرص الحراك الاجتماعى ستتزايد أمامهم وبعد الانتفاضة الفلسطينية التي تخلق جوا من عدم الاستقرار السياسى، وصلت نسبة التساقط بين اليهود السوفييت إلى ٩٠% من جمله المهاجرين ، ومع هذا، أدى انهيار الدولة الاشتراكية السوفيتية وإغلاق الولايات المتحدة أبوابها أمام المهاجرين السوفييت إلى زيادة خروجهم من الاتحاد السوفيتى واستيطانهم فى فلسطين ولكنهم على أية حال، يذهبون إلى إسرائيل بنية التوجه إلى بلد أخر يحقق لهم طموحهم فى الحراك الاجتماعى ، وذلك عندما تسنح الفرصة.
٢ - وقد ظل يهود إيران يمارسون نشاطهم تحت حكم الشاه ثم خرجوا من إيران بأعداد هائلة بعد قيام الثورة الإيرانية لأنها حاولت أن توجه الاقتصاد وجهة لاتتفق مع معايير الاقتصاد الحر وفى كويا. كائت هناك جماعة يهودية، ولكن حينما حدثت الثورة الاشتراكية انخفض العدد إلى العشر، وذلك على الرغم من أن الثورة الكوبية كانت تتبادل العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل ولم تقف في طريق النشاط الصهيونى ولم تسىء معاملة اليهود على الإطلاق باعتراف المراجع الصهيونية، ونفس الشىء يقال بالنسبة إلى يهود شيلى الذين تركوها حينما وصل أليندى بتوجهه الاشتراكى إلى الحكم، وعادوا إليها مع بينوشيه ممثل الفاشية العسكرية، فارتباط أعضاء الجماعات اليهودية فى كثير من بلاد العالم بنمط إنتاجى معين وبعقلية تجارية محددة، وامتلاكهم الخبرات إدارية ومهنية معينة، جعل من العسير عليهم الاستمرار فى المجتمع الجديد، فهم «ضحايا التأميم» كما

يقول أحد المراجع الإسرائيلية ومع تزايد الثورات وعدم الاستقرار السياسى فى أمريكا اللاتينية، يلاحظ زيادة هجرة أعضاء الجماعات ونفس الوضع يذطبق على يهود جنوب أفريقيا، فمع تزايد ثورات السود يتجه أعضاء الجماعة إلى الولايات المتحدة .

٣ - وربما تعود هجرة اليهود من البلاد العربية فى الخمسينيات إلى مركب من الأسباب منها قيام الدولة الصهيونية وما خلفته من مشاكل لليهود العرب ، ومنها ارتباط عدد كبير من أعضاء الجماعات اليهودية بالدول الاستعمارية ومما لاشك فيه أن التحول البنيوى الذى خاضته بعض المجتمعات العربية، مثل المجتمعين المصرى والسورى، وقيام تجارب تنموية تحت إشراف الدولة، قد ساهما بشكل عميق فى عملية خروج اليهود ، التي لايمكن رؤيتها كظاهرة منفصلة عن خروج جماعات تجارية وسيطة أخرى مثل الإيطاليين واليونانيين من مصر ممن لم يستطيعوا التلاؤم مع إجراءات التمصير والتعريب والتأميم وإلى جانب هذا ، حققت إسرائيل ليهود البلاد العربية المهاجرين قسطا من الحراك الاجتماعى باعتبار أن المستوى المعيشى فى البلاد العربية أقل منه فى إسرائيل كما ان يهود البلاد العربية لم يكن لديهم الخبرات الكافية المطلوبة فى الولايات المتحدة. ويلاحظ أن عددا كبيرا من أعضاء نخبتهم الاقتصادية والثقافية هاجرت إلى فرنسا وغيرها من البلاد ذات المستوى المعيشى المرتفع الذى يفوق نظيره فى إسرائيل والتى تتميز باقتصاد متقدم ومن ثم تحتاج إلى خبراتهم ورأسمالهم ومن ناحية أخرى، هاجرت جماهير يهودية إلى فرنسا حينما سنحت لها الفرصة، فقد هاجر إليها معظم يهود الجزائر وأعداد كبيرة من يهود المغرب .

٤ - وفى هذا الاطار، يمكن تفسير ظاهرة هجرة يهود أمريكا اللاتينية وجنوب أفريقيا إلى الولايات المتحدة، فالهجرة إلى إسرائيل لن تؤدى إلى أي تحسن فى مستوى معيشتهم كما أن التجمع الصهيوني لن يمكنه استيعابهم بخبراتهم المهنية والإدارية المتقدمة

٥- ويلاحظ أن يهود البلاد الغربية (أوربا والولايات المتحدة وكندا) لايهاجرون مطلقا إلى إسرائيل أو غيرها من البلاد الاستيطانية، فمثل هذه الهجرة ليس لها ما يبررها وفق نموذجنا التفسيرى وإن كان يلاحظ أن يهود انجلترا يهاجرون بأعداد متزايدة إلى الولايات المتحدة، ربما لتفاقم الأزمة الاقتصادية فى انجلترا، فهى بلد ذات مستقبل اقتصادى مظلم على حد قول أحد المهاجرين البريطانيين اليهود إلى الولايات المتحدة .

٦ - بل ويلاحظ أن هناك هجرة إسرائيلية متزايدة إلى الولايات المتحدة ،شكلت ما يسمى «الدياسبورا الإسرائيلية» يبلغ عددها فى بعض الإحصائيات نصف مليون ومنهم عدد كبير من جيل الصابرا وفى نفس الاطار أيضا، يمكن تفسير هجرة أو تهجير يهود الفلاشا تحت ظروف المجاعة، فهى هجرة سيحققون من خلالها حراكا اجتماعيا كبيرا ويمكن القول ان مصادر المهاجرين إلى الدولة الصهيونية آخذة فى النضوب، فأعضاء أكبر جماعة يهودية فى العالم (فى الولايات المتحدة) لايهاجرون، ويهود العالم الغربى إن هاجروا يتجهون إلى الولايات المتحدة ويتبع يهود أمريكا اللاتينية وغيرهم نفس النمط وقد تم تصفية يهود العالم الشرقى والإسلامى، فلم يبق سوى أفراد قلائل وتساهم معدلات الآندماج والزواج المختلط، وكذلك عزوف اليهود عن الإنجاب، فى تناقص العدد الكلى لليهود وبالتالى فى تناقص العدد المحتمل للمهاجرين، وهو مايعنى أن الوقود البشرى للكيان الصهيونى لم يعد متوافرا بنفس الكثافة ولم يبق سوى الأحتياطى البشرى الوحيد للكيان الصهيونى فى الاتحاد السوفيتى إلا أن خروج اليهود السوفييت وتوجههم إلى إسرائيل يخضع لنفس النمط الذى اقترحناه: شرق أوربا كمصدر للمادة البشرية، والولايات المتحدة كمستورد لها ولكن، كما أسلفنا، أدى انهيار الدولة الاشتراكية السوفيتية، وإغلاق باب
الهجرة إلى أمريكا، إلى تحويل هذه الاعداد إلى إسرائيل

وفيما يلي جدول الهجرات اليهودية منذ عام ١٨٨٢ وحتى عام ١٩٩٣

فترة الهجرة	مجموع المهاجرين	آسيا	أفريقيا	أوروبا	أمريكا	غير معروف
١٨٨٢-١٩٠٣	٢٠,٠٠٠-٣٠,٠٠٠					
١٩٠٤-١٩١٤	٣٥,٠٠٠-٤٠,٠٠٠					
١٩١٩-١٩٤٨	٤٨٢,٨٥٧	٤٠,٨٩٥	٤,٠٤١	٣٧٧,٣٨١	٧,٧٥٤	٥٢,٧٨٦
١٩١٩-١٩٢٣	٣٥,١٨٣	١,١٨١	٢٣٠	٢٧,٨٧٢	٦٧٨	٥,٢٢٢
١٩٢٤-١٩٣١	٨١,٦١٣	٩,١٨٢	٦١١	٦٦,١١٧	٢,٢٤١	٢,٦٥٢
١٩٣٢-١٩٣٨	١٩٧,٢٣٥	١٦,٢٧٢	١,٢١٢	١٧١,١٧٣	٤,٥٨٩	٣,٩٨٩
١٩٣٩-١٩٤٥	٨١,٨٠٨	١٣,١١٦	١,٠٧٢	٦٢,٩٦٨	١٠٨	٤,٥٤٤
١٩٤٦-١٩٤٨	٥٦,٤٦٧	١,١٤٤	٩٠٦	٤٨,٤٥١	١٢٨	٥,٨٢٨
١٩٤٨	١٠١,٨٢٨	٤,٧٣٩	٨,١٩٢	٧٦,٥٥٤	٤٧٨	١١,٨٦٥
١٩٤٩	٢٣٩,٩٥٤	٧١,٦٥٢	٣٩,٢١٥	١٢١,٩٦٣	١,٤٢٢	٥,٧٠٢
١٩٥٠	١٧٠,٥٦٣	٥٧,٥١٥	٢٦,١٦٢	٨١,١٩٥	١,٩٥٤	٣,٦٨٧
١٩٥١	١٧٥,٢٧٩	١٠٣,٣٩٦	٣٠,٣٨٢	٤٧,٠٧٤	١,٢٨٦	٣,١٤١
١٩٥٢	٢٤,٦١٠	٦,٨٦٧	١٠,٢٨٦	٦,٢٣٢	٩٥٠	٢٧٥
١٩٥٣	١١,٥٧٥	٣,٠١٤	٥,١٠٢	٢,١٤٧	٩٢٠	٣٨٢
١٩٥٤	١٨,٤٩١	٣,٣٥٧	١٢,٥٠٩	١,٣٦٩	١,٠٩١	٦٦٥
١٩٥٥	٣٧,٥٢٨	١,٤٣٣	٣٢,٨١٥	٢,٠١٥	١,١٥٥	٦١
١٩٥٦	٥٦,٢٣٠	٣,١٣٩	٤٥,٢٨٤	٦,٧٣٩	١,٠٦٧	١٠١
١٩٥٧	٧٢,٦٣٤	٤,٣٣٠	٢٥,٧٤٧	٣٩,٨١٢	١,٤١٠	١,٤٣٥
١٩٥٨	٢٧,٢٠٠	٧,٩٢١	٤,١١٣	١٣,٦٩٥	١,٣٢٠	٢٤١
١٩٥٩	٢٣,٠٠٠	٣,٥٤٤	٤,٤٢٩	١٤,٧٢١	١,١٤٧	١٣٧
١٩٦٠	٢٤,٠٠٠	١,٧٨٢	٥,٢٧٩	١٦,١٦٩	١,١٥٨	٢٠٤
١٩٦١	٤٧,٧٣٥	٤,١٤٩	١٨,٠٤٨	٢٣,٣٧٥	١,٩٦٩	١٩٤
١٩٦٢	٦١,٥٣٣	٥,٣٥٥	٤١,٨١٦	١١,٨٢٥	٢,١٨٧	٣٥٠
١٩٦٣	٦٤,٤٨٩	٤,٩٦٤	٣٨,٦٧٢	١٤,٢١٣	٦,٤٩٧	١٤٣
١٩٦٤	٥٥,٠٣٦	٥,٠٥٧	١٧,٣٤٠	٢٨,١٢٤	٤,١٨٨	٣٢٧
١٩٦٥	٣١,١١٥	٥,٣٣٣	٨,٥٣٥	١٣,٨٧٩	٣,٠٩٦	٢٨٢
١٩٦٦	١٥,٩٥٧	٣,١٣٧	٣,٠٢٤	٧,٤٣٥	٢,١٣٢	٢٢٩

فترة الهجرة	مجموع المهاجرين	آسيا	أفريقيا	أوروبا	أمريكا	غير معروف
١٩٦٧	١١٤,٤٦٩	١,٩٨٧	٦,٢٦٨	٤,٢٩٥	١,٧٧١	١٤٨
١٩٦٨	٢٠,٧٠٣	٤,٦٧١	٧,٥٦٧	٦,٠٢٩	٢,٢٧٥	١٦١
١٩٦٩	٣٨,١١١	٧,٠١٨	٥,٩٢٦	١٥,٢٣٦	٩,٦٠١	٣٣٠
١٩٧٠	٣٦,٧٥٠	٦,٩٠٤	٣,٧٨٥	١٤,٤٣٤	١١,٤٠٥	٢٢٢
١٩٧١	٤١,٩٣٠	٥,٧٧٨	٢,٢٥٤	٢٠,٨٨٨	١٢,٨٨٥	٢٥
١٩٧٢	٥٥,٨٨٨	٣,١٤٣	٢,٧٦٦	٣٩,١٤٥	١٠,٨١٤	٢٠
١٩٧٣	٥٤,٨٨٦	٣,٠٢٥	٢,٨٣٩	٤٠,١٩٢	٩,٥٢٢	٨
١٩٧٤	٣١,٩٨١	١,١٧٩	١,٢١٦	٢٣,١٣٦	٦,٤٣٩	٢١
١٩٧٥	٢٠,٠٢٨	٩٢٧	٦٨٩	١٣,٤١٧	٤,٩٨٩	٦
١٩٧٦	١٩,٧٥٤	١,١٣٥	٦٩٧	١٢,١٣٧	٥,٧٧٤	١١
١٩٧٧	٢١,٤٢٩	٩٠٨	١,٦٢٠	١٢,٦٦٠	٦,٢٠١	٤٠
١٩٧٨	٢٦,٣٩٤	١,٧٣٦	١,٦٨٣	١٦,٥٤٩	٦,٣٠٥	١٢١
١٩٧٩	٣٧,٢٢٢	٧,٠٨٧	١,٣٤٠	٢٢,٤٠٤	٦,٠٢٤	٣٦٧
١٩٨٠	٢٠,٤٢٨	٣,٢٠٣	١,٠٠٧	١١,٧٩٢	٤,٣٥٠	٧٧
١٩٨١	١٢,٥٩٩	١,٢١٥	١,١٧٠	٥,٩٠١	٤,٧٤٣	٦٢
١٩٨٢	١٣,٧٢٣	٩٥١	١,٥٥٥	٦,١٦٨	٥,٠٠٣	٤٦
١٩٨٣	١٦,٩٠٦	٨٤٤	٢,٠٩٤	٦,١٥٤	٦,٧٥٨	٥٦
١٩٨٤	١٩,٩٨١	٧٠٠	٨,٨٨٥	٥,٤٨٥	٤,٨٧٦	٢٥
١٩٨٥	١٠,٦٤٢	٦٠٧	٢,٣١٨	٢,٩٦٤	٣,٧٣٩	١٤
١٩٨٦	٩,٥٠٥	١,١٨٣	٩٨٣	٣,١٧٥	٣,٦٣٤	٣١
١٩٨٧	١٣,٩٦٥	١,٨٨٨	١,٢٠٥	٦,٠٤٤	٣,٨١٢	١٦
١٩٨٨	٢٤,٠٥٠	١,٧٠٠	١,٣٣٤	٦,٠١٢	٣,٩٦٩	١٩
١٩٨٩	٢٤,٠٥٠	١٨٥	١,٨١١	١٦,٧٦٦	٤,١٤٧	٩١
١٩٩٠	١٩٩,٥١٦	٩٤٠	٤,٤٧٢	١٨١,٦٥٠	٤,٣١٥	١٣٩
١٩٩١	١٧٦,١٠٠	٦٢٢	٢٠,٢٥١	١٥٣,١٤٢	٣,٠٢٣	٦٢
١٩٩٢	٧٧,٠٥٧	٨٩١	٤,٠٧٥	٦٨,٩٦٣	٣,٠٠٦	١٢٢
١٩٩٣	٧٦,٨٠٥	١,٧٢٨	١,٤٣١	٧٠,٣١٥	٣,٢٨٣	٤٨

ويمكننا الآن أن نتناول الهجرة اليهودية فى إطار الادعاءات الصهيونية التي هيمنت علي العقل العربى والتى تذهب إلى أن اليهود يتوجهون إلى فلسطين كلما سنحت لهم الفرصة ، وأن بلاد العالم تمثل بالنسبة لهم أرض الشتات والمنفى، أما فلسطين فهى أرض الميعاد والعودة.. ولندع الأرقام تتحدث والجدول التالى يتناول هجرة أعضاء الجماعات اليهودية إلى فلسطين وغيرها فى كل أرجاء العالم فى الفترة من ١٨٤٠ حتى عام ١٩٤٢ .

السنة	الولايات المتحدة	كندا	الارجنتين	البرازيل	أورجواى	الدول الأخرى فى الامريكتين	جنوب أفريقيا	فلسطين	الدول الأخرى	الاجمالى
١٨٤٠ _ ١٨٨٠	٢٠٠.٠٠٠	١.٦٠٠	٢.٠٠٠	٥٠٠	—	١.٠٠٠	٤.٠٠٠	١٠.٠٠٠	٢.٠٠٠	٢٢١.١٠٠
١٨٨١ _ ١٩٠٠	٦٧٥.٠٠٠	١٠.٥٠٠	٢٥.٠٠٠	١.٠٠٠	—	١.٠٠٠	٢٣.٠٠٠	٢٥.٠٠٠	٤.٠٠٠	٧٦٤.٥٠٠
١٩٠١ _ ١٩١٤	١.٣٤٦.٤٠٠	٩٥.٣٠٠	٨٧.٦١٤	٨.٧٥٠	—	٣.٠٠٠	٢١.٣٧٧	٣٠.٠٠٠	١٠.٠٠٠	١.٦٠٢.٤٤١
١٩١٥ _ ١٩٢٠	٧٦.٤٥٠	١٠.٤٥٠	٢.٥٠٣	٢.٠٠٠	١.٠٠٠	٤.٠٠٠	٩٠٧	١٥.٠٠٠	٥.٠٠٠	٨٩.٣١٠
١٩٢١ _ ١٩٢٥	٢٨٠.٢٨٣	١٤.٤٠٠	٣٩.٧١٣	٧.١٣٩	٣.٠٠٠	٧.٠٠٠	٤.٦٣٠	٦٠.٧٦٥	١٠.٠٠٠	٤٢٦.٩٣٠
١٩٢٦ _ ١٩٣٠	٥٤.٩٩٨	١٥.٣٠٠	٣٣.٧٢١	٣٢.٣٩٦	٦.٣٧٠	١٠.٠٠٠	١٠.٠٤٤	١٤.١٧٩	١٠.٠٠٠	١٧٢.٩٠٨
١٩٣١ _ ١٩٣٥	١٧.٩٨٦	٤.٢٠٠	١٢.٧٠٠	١٣.٠٧٥	٣.٢٨٠	١٥.٠٠٠	٤.٥٠٧	١٤٧.٥٠٢	٢٠.٠٠٠	٢٣٨.٢٥٠
١٩٣٦ _ ١٩٣٩	٧٩.٨١٩	٩٠٠	١٤.٧٨٩	١٠.٦٠٠	٧.٦٧٧	٩٥.٠٠٠	٥.٣٠٠	٩٥.٤١٠	٦٠.٠٠٠	٣٦٩.٤٩٥
١٩٤٠ _ ١٩٤٢	٧٠.٩٠٤	٨٠٠	٤.٥٠٠	٦.٠٠٠	١.٠٠٠	٢.٠٠٠	٢.٠٠٠	٣٥.٠٠٠	١٠.٠٠٠	١٣٢.٢٠٤
المجموع	٢.٨٠١.٨٩٠	١٥٢.٤٥٠	٢٣٣.٥٤٠	٧٩.٣٦٠	٢٢.٣٢٧	٥٩.٠٠٠	٧٥.٧٦٤	٣٠٨.٩٥٦	١٣١.٠٠٠	٣.٩١٧.٣٨٨

ويلاحظ من الجدول السابق أنه من مجموع ٣٨٨. ٩١٧. ٣ من المهاجرين لم يتجه سوى ٩٥٦. ٢٧٨ إلى فلسطين فى فترة مائة عام تمتد من ١٨٤٠ حتى عام ١٩٤٢ وذلك برغم كل النشاط الاستعمارى والصهيونى المكثف، ومن الطريف أن هذا العدد مساو تقريبا لعدد اليهود الذين اتجهوا إلى أمريكا اللاتينية فى نفس الفترة «٢٢٧. ٣٧٦» بفارق ٦٢٩ ٢ يهوديا. ولو استبعدنا الهجرة فيما بعد عام ١٩٣١ حيث أغلقت أمريكا اللاتينية أبوابها فسنكتشف أن عدد المهاجرين إلى أمريكا اللاتينية كان ٢٧٠.٦٠١ فى مقابل ١٢٥.٩٤٤ إلى فلسطين، بل إن بلدا واحدا مثل الارجنتين هاجر اليه ٥٥١. ١٩١ أي أكثر من كل الذين هاجروا إلى فلسطين فى نفس الفترة «ويحسب احصائيات روبين، كان

يوجد فى الارجنتين فى عام ١٩٣٠ نحو ٢٢٠ ألفا و ٢٩١ ألفا فى أمريكا اللاتينية كلها» كما أن بلدا مثل كندا كان يضم ١٥٠ ألف يهودى فى عام ١٩٣٠ بينما كانت فلسطين لاتضم سوى ١٧٠ ألفا ولكن التحدى الأكبر لأرض الميعاد كان يأتى من البلد اذهبى أو «الجولدن مدينا» أي الولايات المتحدة. ففى الفترة التي نشير اليها، هاجر إلى الولايات المتحدة ٣.٨٠١.٨٩٠ فى مقابل ٣٧٨.٩٥٦ هاجروا إلى فلسطين عدد المهاجرين اليهود إلى كل من الولايات المتحدة وفلسطين فى الفترة ١٩١٥ - مايو ١٩٤٨

السنة	الولايات المتحدة	فلسطين	السنة	الولايات المتحدة	فلسطين
١٩١٥	٢٦.٤٩٧	-	١٩٣٢	٢.٧٥٥	١٢.٥٥٣
١٩١٦	١٥.١٠٨	-	١٩٣٣	٢.٣٧٢	٣٧.٣٣٧
١٩١٧	١٧.٣٤٢	-	١٩٣٤	٤.١٣٤	٤٥.٢٦٧
١٩١٨	٣.٦٧٢	-	١٩٣٥	٤.٨٣٧	٦٦.٤٧٣
١٩١٩	٣.٠٥٥	١.٨٠٦	١٩٣٦	٦.٢٥٢	٢٩.٥٩٥
١٩٢٠	١٤.٢٩٢	٨.٢٢٣	١٩٣٧	١١.٣٥٢	١٠.٦٢٩
١٩٢١	١١٩.٠٣٦	٨.٢٩٤	١٩٣٨	١٩.٧٣٦	١٤.٦٧٥
١٩٢٢	٥٣.٥٢٤	٨.٦٨٥	١٩٣٩	٤٣.٤٥٠	٣١.١٩٥
١٩٢٣	٤٩.٧١٩	٨.١٧٥	١٩٤٠	٣٦.٩٤٥	١٠.٦٤٣
١٩٢٤	٤٩.٩٨٩	١٣.٨٩٢	١٩٤١	٢٣.٧٣٧	٤.٥٩٢
١٩٢٥	١٠.٢٩٢	٣٤.٣٨٦	١٩٤٢	١٠.٦٠٨	٤.٢٠٦
١٩٢٦	١٠.٢٦٧	١٣.٨٥٥	١٩٤٣	٤.٧٠٥	١٠.٠٦٣
١٩٢٧	١١.٤٨٣	٣.٠٣٤	١٩٤٤	١٥.٥٥٢	
١٩٢٨	١١.٦٣٩	٢.١٧٨	١٩٤٥	١٥.٢٥٩	
١٩٢٩	١٢.٤٧٩	٥.٢٤٩	١٩٤٦	١٨.٧٦٠	
١٩٣٠	١١.٥٢٦	٤.٩٤٤	١٩٤٧	٢٢.٠٩٨	
١٩٣١	٥.٦٩٢	٤.٠٧٥	١٩٤٨	١٧.١٦٥	

ويلاحظ من الجدول السابق أن الولايات المتحدة استوعبت نحو مليونا مهاجر يهودى من مجموع المهاجرين اليهود البالغ عددهم ٢.٦٥٠.٠٠٠ والذين أتوا أساسا من أوربا الشرقية ثم الوسطى،

أي أنها استوعبت حوالى ٨٦ % من مجموع المهاجرين اليهود. وقد استقر نحو ٣٩٠ ألف مهاجر يهودى فى أوربا الغربية، ونحو ٢٠٠ ألف فى باقى بلدان العالم، واستوعبت كندا نحو ٤% والارجنتين ٩% وجنوب أفريقيا ٢% . ولم يستوطن فى فلسطين سوى ٥٠ ألفا، أي حوالى ٢% من مجموع المهاجرين.

وقد استمر الوضع على ذلك فى الفترة ١٩١٥ ـ ١٩٣١ ، أي قبل ظهور هتلر ، إذ استوعبت الولايات المتحدة ٥٥% من مجموع ٧٦٠ ألف مهاجر يهودى واستوعبت كندا ٦%، والارجنتين ١٠% واستوعبت بلدان أمريكا اللاتينية الأخرى ٩%، وجنوب أفريقيا ٢%، والبلاد الأخرى ٣% ولم يستوطن فى فلسطين سوى ١٥% على الرغم من أنه لم تكن توجد أنذاك قيود على الاستيطان فيها ولم يحدث أي تغيير إلا بعد إغلاق أبواب الهجرة إلى الولايات المتحدة ثم إلى بلاد الاستيطان الأخرى فى أوربا وأمريكا اللاتينية

وجنوب أفريقيا. وقد بلغ الاستيطان اليهودى فى فلسطين ذروته فى الفترة بين عامى ١٩٣٢ و ١٩٣٩ ، حيث استوطن فى فلسطين حوالى ٤٦% من مجموع المهاجرين اليهود البالغ عددهم ٥٤٠ ألفا، ولم يستوطن فى الولايات المتحدة سوى ٢٠% وقد بلغ عدد المستوطنين الصهاينة فى الفترة ١٩٣١ ـ ١٩٣٥، أي فى أربعة أعوام، حوالى

١٤٧.٥٠٢ (١٦٥.٧٠٤ بحسب تقديرات الموسوعة اليهودية) وهو عدد يساوى عدد كل المستوطنين الموجودين بالفعل والذين كانوا قد استوطنوا فى فلسطين فى خلال الفترة من عام ١٨٨٢ إلى عام ١٩٣٠. وفى الفترة من عام ١٩٢٦ إلى عام ١٩٣٩، هاجر ٧٥.٥١٠ (تذكر الموسوعة اليهودية هذا الرقم على أنه ٨٦..٩٤) وشهدت الفترة بين عامي ١٩٤٠ ١٩٤٨١ ١٩٤٨١ تحولا طفيفا فى نمط الهجرة اذ اتجه ١٢٥ ألف مهاجر يهودى من مجموع ٢٠٠ ألف .

أى ٤٢% من مجموع المهاجرين، إلى الولايات المتحدة، واتجه إلى فلسطين ١٢٠ ألفا أي ٤٠% فقط. وقد أدى هذا إلى ظهور كثافة سكانية يهودية فى فلسطين لم تكن موجودة قبل وصول هتلر إلى الحكم، فكأن الفوهرر نجح فى خلال ثمانية أعوام، عن طريق خلق الظروف الموضوعية لهجرة اليهود من أوربا، فى إنجاز ما لم تنجح الحركة الصهيونية والاستعمار العالمى فى إنجازه فى نصف قرن (١٨٨٢ ـ ١٩٣١)، أي أن الصهيونية الموضوعية البنيوية أكثر كفاءة وفعالية من الصهيونية العقائدية. فقد هاجر فى تلك الفترة نحو ثلاثة ملايين يهودى من وطنهم الأصلى ولم

تتجه سوى قلة منهم إلى فلسطين. ومع هذا، لا يمكن انكار دور الصهيونية والاستعمار فى خلق هذا الموقف الصهيونى البنيوى، والواقع أن الدول الغربية، بما فى ذلك الولايات المتحدة، أوصدت بابها دون اللاجئين اليهود وغير اليهود بسبب ظروف الكساد الاقتصادى.

أما الصهاينة، فقد أبرموا مع النازيين معاهدة الهعفراه التي ساهمت فى توجيه هجرة يهود ألمانيا إلى فلسطين بحيث يتحولون إلى مستوطنين. وقد سمحت لهم السلطات الألمانية بأخذ جزء كبير من ثرواتهم معهم ويمكننا أن نخلص من ذلك إلى أن فلسطين لا تمثل أي نقطة جذب بالنسبة إلى يهود العالم، وإلى أن اليهود هاجروا إليها بسبب

عوامل الطرد الحادة فى أوربا وعدم وجود منافذ أخرى لا بسبب عوامل الجذب فيها ولعل الاستثناء الأساسى الآخر للنمط العام لهجرة أعضاء الجماعات اليهودية فى العصر الحديث هو الفترة الممتدة من ١٩٤٨ حتى أواخر الخمسيات، حيث قامت الحركه الصهيونية بحركة ضغط هائلة لنقل اللاجئين اليهود من ضحايا الحرب العالمية الثانية إلى فلسطين وفى نفس الفترة، أدى إعلان الدولة اليهودية، ونشاط العملاء الصهاينة، وجهل بمض الحكومات العربية، إلى خلق وضع متوتر بالنسبة لأعضاء الجماعات اليهودية

فى العالم العربى الإسلامى، فهاجرت أعداد كبيرة منهم واستوطنت فى فلسطين، وعلى أية حال، يمكن رؤية حركة الهجرة اليهودية من البلاد العربية إلى فلسطين على أنها أيضا

حركة هجرة إلى فلسطين باعتبارها البلدة الذهبية اليهودية وليس باعتبارها أرض الميعاد. والهدف ليس خلاص الروح، بطبيعة الحال، وإنما تحقيق الحراك الاجتماعى. فالعرب اليهود لم تمكنهم ظروفهم الحضارية والاقتصادية، ولا خبراتهم، من الهجرة إلى أوربا والولايات المتحدة، فهاجروا إلى إسرائيل لتحقيق الحراك الاجتماعى الذى فشلوا فى تحقيقه بالدرجة التي يطمحون إليها داخل مجتمعاتهم العربية. ويلاحظ أن عددا كبيرا من أعضاء النخبة الاقتصادية والثقافية هاجروا إلى فرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية، كما هاجر يهود الجزائر إلى فرنسا لأن ظروفهم سمحت بذلك وبعد تصفية هذه الكتلة البشرية اليهودية، يعود نمط الهجرة بين أعضاء الجماعات اليهودية إلى سابق عهده، أي يتجه اليهود مرة أخرى إلى الولايات المتحدة التي أصبحت نقطة جذب كما كانت من قبل. ومن ثم، نجد أن الهجرة اليهودية من الاتحاد السوفيتى تواجه مشاكل عميقة - من المنظور الصهيونى - لأن المهاجرين يغبرون اتجاههم فى النمسا أو فى

أية محطات انتقالية أخرى، وبدلا من أن يتوجهوا إلى فلسطين المحتلة ليصبحوا مستوطنين صهاينة يتجهون إلى الولايات المتحدة ليصبحوا مهاجرين وحينما هاجر يهود الجزائر فى عام ١٩٦٥، ويهود أمريكا اللاتينية منذ الستينيات وحتى الآن ، ثم يهود إيران ، فإنهم
لم يتجهوا إلى فلسطين وإنما إلى فرنسا والولايات المتحدة ، ويلاحظ أن يهود جنوب أفريقيا يتجهون أيضا إلى الولايات المتحدة، وربما إلى جيوب استيطانية أخرى مثل أستراليا - ولقد بدأ المستوطنون الصهاينة أنفسهم يتبعون هذا النمط ويبلغ أعضاء الدياسبورا الإسرائيلية فى الولايات المتحدة نحو ٧٥٠ ألفا، حيث يزيد عدد النازحين من إسرائيل إلى الولايات المتحدة على عدد اليهود الذين يذهبون إلى الدولة الصهيونية للاستيطان ويدل تدفق الهجرة اليهودية على وطن الاقتصاد الحر والفرص الاقتصادية بعيدا عن «أرض الميعاد»على أن حركيات التاريخ وتركيبية النفس البشرية تؤكد نفسها على الدوام وتكتسح فى طريقها كثيرا من التحيزات العقائدية الاختزالية ولتزويد الكيان الصهيونى بالمادة القتالية اللازمة لاستمرار اضطلاعه بدوره القتالى ، أغلقت الولايات المتهدة أبوابها أمام المهاجرين السوفييت حتى يضطروا إلى التدفق صاغرين إلى الدولة الصهيونية كما
تمارس المنظمة الصهيونية شتى أنواع الضغط على ألمانيا لكيلا تفتح أبوابها أمام المهاجرين السوفييت الذين يقرعون أبوابها كما أنها تعلن عن شتى المغريات المالية للمهاجرين الجدد . وعلى كل بعد تدفق نصف مليون يهودى روسى على إسرائيل وليس الملايين التى تحدث عن الاعلام العالمى أي الغربى والعربى على مدار عشرة أعوام تقريبا، نضبت منابع المادة البشرية الاستيطانية فى شرق أوربا خاصة العناصر الشابة الراغبة فى الهجرة والقادرة عليها وسيعود النمط القديم ليؤكل نفسه، أي تدفق اليهود على أرض الميعاد الذهبية الأمريكية، إلى أو أي أرض ميعاد أخرى تحقق لهم الحراك الاجتماعى .
ويدلا من تسمية الظواهر بأسمائها، تشير الادبيات الصهيونية إلى الهجرة اليهودية إلى الولايات المتحدة أو إلى العالم المتقدم أو الحر بما يسمونه «الشتات الجديد» ونشير إلى ذلك بأنه «الدياسبورا الدائمة» .

الدياسبورا الدائمة Permament

«الديا سبورا الدائمة» مصطلح قمنا بصكه لنصف أعضاء الجماعات اليهودية فى العالم، إذ أنه على الرغم من كل الادعاءات الصهيونية ورغم استخدام مطلح الدياسبورا لوصف وضعهم، فإن غالبيتهم تؤثر البقاء خارج فلسطين فى المنفى. فالدياسبورا أو الشتات اليهودى مسألة طوعية وليست مسألة مرتبطة بعملية قسر خارجية. وحالة الدياسبورا أو الإنتشار هى حالة دائمة بغض النظر عما يحدث فى فلسطين بل إن اتجاه بعض أعضاء الجماعات اليهودية إلى فلسطين للاستقرار فيها، أحيانا ينبع من حركيات لاعلاقة لها بصهيون .

وفيما يلى جدول باعداد أعضاء الجماعات اليهودية، فى فلسطين المحتلة والعالم يدل على أن الدياسبورا حالة دائمة نهائية بالفعل

أعداد اليهود فى فلمسطين المحتلة والعالم

سنة	عددهم فى فلسطين	نسبتهم ليهود العالم
١٨٨٢	٢٤ ...	٪٠.٣
١٩٠٠	٥٠.٠٠٠	٪٠.٥
١٩٢٥	١٢٢.٠٠٠	٪٠.٨
١٩٤٠	٤٦٧.٠٠٠	٪٢.٨
١٩٤٨/١٠/٥	٦٥٠.٠٠٠	٪٥.٧
١٩٥١	١.٤٠٤.٠٠٠	٪١٢.٢
١٩٦٥	٢.٢٩٩.٠٠٠	٪١٧.١
١٩٧٥	٢.٩٥٩.٠٠٠	٪٢٠.٩
١٩٨٠	٣.٢٨٢.٧٠٠	٪٢٥
١٩٨٥	٣.٥١٠.٠٠٠	٪٢٧

أى أن ربع الشعب، اليهودى وحسب قد قرر الاستيطان فى فلسطين مما يعنى أن أغلبيته الساحقة قد آثرت العيش فى «المنفى» على الرغم من أن الدولة الصهيونية قد فتحت أبوابها على مصراعيها أمامهم كل هذا يعنى فى واقع الأمر أن المنفى ليس بمنفى . وأن أرض الميعاد والعودة ليست أرضا للميعاد أو للعودة غم كل الادعاءات الصهيونية .